

الاسلام

انظر الحق له محمود

تأليف

مصطفى الراجحي

مكتبة في الحقوق من جامعة باريس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كأما امتد عمر الانسان الحضاري ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه ميادين العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطوير والارتقاء ؛ فما كان يحمله على عاتقه - وهو في الالف الاول على سني حضارته - ليس شيئاً البتة ، اذا قيس بما يتراكم على عاتقه في النصف الاول من الالف الثاني ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسةائة عام كفيلة بأن تقلب مفاهيم العقل واساليب المنطق . واسس العلم . فما هو ثابت في اولها يصبح لاغياً في آخرها ؛ وما هو بديهي في بدايتها ينقلب خرافياً في نهايتها ؛ ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بيّن واضح لكل ذي عينين .

ولست أدري ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التي تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، في صالح الانسانية ومن اجل رخائها، أم تكون هي الخطوات التي تنهي بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التي تختتم بها مسرحيتها . فالدلائل

كلها تشير الى ان كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها في المغامرة ، وثوراتها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف في تعشيقها لفض المغاليق وتشوقها لحل المبهمات .

ولكن .. هل انتهت ازمة الانسانية ؟

وهل وجد الانسان ضالته المنشودة .. « السعادة » ؟

هل تآصر بنو آدم لتوفير الرخاء والهناء لبني آدم ، أم انهم تآمروا على اقتسام الغنائم ، واستهام الانصب في الجهات الاربع من هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكنني اذكر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام الحالكة ، والدماء المراقبة والمدن المدمرة ، والشعوب المشردة ، والبلاد المقسمة .

اذكرهم — ولعلمهم لا ينسون — بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة ؟ وان هذه الفترة لو امتدت طولاً وعرضاً ، لما كان امتدادها — ابداً — كافياً لتعمير ما هدمته الحروب ، ولتشديد ما قوضته الاسلحة ؟ وابرز دليل على ذلك ان الانسان المتحضر ، عانى في أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ، قدم خلالها مئات الملايين من الاضاحي الغالية ، وحوّل فيها عامر الارض غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفي هاتين الحربين بددت الانسانية المتمدينة ثروتها كلها — وتقدر بالبلايين — ثناً للنار والبارود ؛ ومن اجل آلات الموت والافناء ، وفيها ايضاً جعلت الانسانية عمالها ، وشبانها ، وشاباتها ، واشلاء قتلها ، جعلت كل ذلك حشواً للمدافع ، وطعاماً للهب ..

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ — وقد عرضت بايجاز صورة أخيرة

منه — وهل وجد الانسان نفسه في منجى من العاصفة ؟ .

هذا هو امل الانسان .. الامل الذي يتضاءل وتتهارب اخيلته الحلوة ، امام نذر الحرب التي تحوِّم في الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذي عرق نابض .

لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا مخرج عدة لازمة الخانقة ؛ ابتكروها في اثواب نظرية براقة ، يخيل للناظر اليها من بعيد ، انها هي آخر المطاف فيما يتعلق بالتنازع الفكري ، وانها هي الجنة المرتقبة التي يحلم بها البائسون على الارض ؛ وانها هي خشبة الخلاص التي ستقذ الانسانية المشرفة على الغرق .

ابتكروا : الديموقراطية ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى اخر تلك المذاهب السياسية الحديثة التي يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هي في الحياة ، وتحاول كل منها ان تضم حول نفسها اكبر عدد ممكن من الانصار . واخيراً .. ظهرت الى الوجود نظرية اخرى هي : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهاها ، واستقت من مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس في فهمها وتطبيقها ، واعتدل فريق آخر وسرت القومية سرعان النار في الهشيم في البلاد العربية ، واصبحت عماد النهضة ، ومعقد الامل ، و محور العمل الايجابي والتفكير السياسي .

فاين يقف الاسلام في زحمة هذه المبادئ وضوضائها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادئ وتلك النظريات من الاسلام ؟

ان قارئ هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة ؟ ويجد ان هذه الاجابة لا تخرج عن السرد المنطقي لتفاعل هذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها حيناً ، وانكماشها حيناً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة اخرى ؛ ولا نتخطى الايضاح المنهجي بقولنا ان هذه النظريات ليست الاحاولات جدية بالاعتبار والتقدير ، قامت في اطراف الارض ، لاسعاد بني الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق شيئاً من ذلك ! .

ان هذه المحاولات اشبه ما تكون بأدلة متماسكة النسيج، قوية التركيب ،فصيحة المنطق ، غير انها تساق في معرض الدفاع عن متهم محكوم عليه ؟

اننا نرى ان الانسانية تعاني امراضاً خطيرة ، قد يكون فيها فناؤها ، ولسنا نشك بأن المحاولات النظرية التي برزت خلال النهضة الانسانية الاخيرة ، لتفادي الكارثة ، أثرت تأثيراً موضعياً ، اشبه ما يكون « بالخنجر الطي » الذي يؤجل الالام ولا يقضي عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارى اننا قمنا بجولة في سوق النظريات – ونحن نحمل الاسلام في صميمنا – ورحنا نلاحظ ما يباينه ويخافيه ، ونظهر ما يواكبه ويحاريه ، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة محددة ، ولا حملنا القارىء حملاً على رأي معين ، او اعتقاد محدد ، بل تركناه يزاملنا في الطريق ، ليتحقق في النهاية من ان : (الاسلام انطلاق لا جمود) وليكون له في هذه المباحث خير معاون على الهداية والاصابة وحسن التمييز .

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

مصطفى الرافعي

الاسلام عبر العصور

- ان الاسلام لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المذنيات حوله ، وليس بينه وبين أي عقيدة اخرى عداوة ولا خصام وهو لا يضمر الحقد لأي دين .
- ومن حسن حظ الاستعمار ان هذه البلاد كانت تخضع - في آخر ايامها - لحكم يحمل الاسم الاسلامي وليس فيه شيء من روجه أو مقاصده .
- ان مستقبل الاسلام واخر كالبحر ، والشعوب الاسلامية تتفاعل في رحابها قوى ناشئة ، وطاقات فنية خلاقة . فعليها وعلى الاديان السبائية عامة ان تبدأ جهادها في اعادة البناء .

بين المدنية والدين - على وجه الاطلاق - عداوة مصطنعة وحب مفقود ، تكافلت على ايجاده واختراعه وتطوعت لاداعته واشاعته ، عوامل شتى ، ودوافع مختلفة ، ما زالت تعمل في هذا الشرق الميمض بنشاط عجيب ودأب غريب ، رغم اختلاف مناهجها وتعداد اهدافها . غير انها تبدو لعين المدقق البصير ، والبحثة

الحكيم ، وفيّة لغرض واحد هو : المقصد الدنيء والنية الشريرة .

واقعد تطوعت بعض القوى في فترات قصية ودانية ، وعصور ماضية وحاضره ، على الايقاع بين الاسلام بالذات وبين المدنية ، واظهار هذا الدين الحنيف بمظهر المبدأ المتعنت المستبد ، والذي لا تسري في اوصاله الحياة الا اذا تغذى من دم المدنية المسفوح وثقافتها المبددة

وسالتنا :

ودر استنا الآن حول الاسلام في أمسه ، وحاضره ليست الا قصة صادقة عن هذه العقيدة عبر فترتين متباينتين من التاريخ ، نهضت في اولها نهضة جبارة ، وسكنت في ثانيتهما سكوناً عجيباً . ومن حق الاسلام علينا ، ونحن رواده واتباعه ، ان نظهره للملأ عذبا صافيا كما تنزل من السماء وان ندرسه كمبدأ وعقيدة ، تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقل الانساني وان نلمّ بجوهره وروحه ليتسنى لنا من بعد ان ننفي عنه الاوشاب والاعراض ، وان ننزه وجهه الكريم من الكلف المفتعل ، وخصوصاً بعد ان استغل هذا الدين اعداؤه ، ونسيه ابناءؤه في عصور الجهالة والظلام .

حقيقتان :

وقبل ان انتقل الى صلب الموضوع ، احب ان اقرر امرين لا جدال فيها ولا شك في صدقهما وهما :

اولا - ان الاسلام كدين سماوي لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المذنيات حوله . فالقرآن ، كلام الله العلي الاعلى ، ما فتىء ينبوع الاول الذي يسقي هذه الدوحة الشائخة العملاقة الممتدة الفروع والاغصان

والاظلال ، وسنة الرسول ما فتئت المشكاة الهادية . اما الذين تغيروا وتبدلوا وباعدتهم حاضرتهم عن امسهم ، اما الذين اضاعوا القرآن وضلوا سواء السبيل ، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذي كان نظاماً وعقيدة ، ففهموه اليوم مجرد شعائر تقليدية ، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء .

ثانياً - ليس بين الاسلام وبين اي عقيدة اخرى او شعب آخر عداوة تقليدية كما يدعي بعض انصاف المتعالمين ؛ وهو كفكرة ، لا يضمن الحق لاي دين آخر كما يحاو لبعض تجار الاديان ان يتخربص ويختلق . وسنعرض لهذه الناحية بالتفصيل الوافي فيما بعد ، والذي يهمنا ذكره الآن هو تعليل الخصام بين الاسلام ، أو على الاصح بين المسلمين وبين سواهم .

الاسلام بين الشرق والغرب :

لقد ولد الاسلام ، في الشرق ، شأن باقي الاديان السماوية ، ولم يحالفه الحظ ، او على الاصح لم يحالف جنوده التوفيق في غزو الغرب واخضاعه لمنهجهم في الحياة وطريقتهم في العيش .

غير ان هذا الوضع لم يكن عائقاً لان تتوطد الصداقة بين الشرق المتدين والغرب المتدين ، وتلك هي اخبار (شارلمان) والرشيد غنية عن الدلالة والترديد .

وتوثقت اواصر الاحترام بين الشرق والغرب ، وشاء سوء الطالع ان يسير كل من الصديقين الودودين في اتجاه مغاير للآخر ، وتعاقبت الاجيال وتغيرت الاحوال حتى كان هذا العصر ، فاذا بالغرب قد تخلص من قيود دينه السماوي وتنكر لمفاهيمه ، وتمنطق بالعقل الانساني ، وبالمقدرة البشرية ، وسار اشواطاً بعيدة في هذا السبيل . اما الشرق فقد فعل العكس تماماً وما زال يراجع نفسه ويظالم امسه ويقلب تراثه السماوي بين يديه حتى بليت يدها واعتل فهمه وسقمت حيويته وشلت حركته وغفا ردها طويلاً من الزمن .

جورثومة الاستعمار :

ومن هنا ، من وهن هذا وتطلع ذاك ، من خمول هذا وطمع ذاك ، نشأت الجورثومة القاضية التي نخرت جسم البشرية .. نشأ الاستعمار وملأت تلك الفكرة بصورها الخلافة ، من سيطرة وتسلط وثروة وملك ، ادمغة العالم الغربي في العصر الذي يسميه المؤرخون عصر النهضة ... وبرزت الى الوجود صور الخصومة الحادة حيناً والدامية حيناً آخر بين الصديتين القديمتين لتخلي كل منهما عن كنزه واقلع كل منهما عن فكرته

نظرة على الماضي :

بعد ان قدمنا هذه الايضاحات الاساسية بالنسبة لحقيقة الاسلام ، والهامة بالنسبة لبحثنا ، ينبغي ، لنا كي نستطيع ان ننقل القاريء الى جو الاسلام الصافي وننقل اليه روائع صورته وبدائع اعماله ، ينبغي لنا ان نعود بالزمن القهقري خمسة عشر قرناً ، الى العصر الجاهلي الاعمى ، الى عصر الضياع الروحي وقلق المصير ، يوم كانت جزيرة العرب تغرق في الجهل والظلام والدم والقتلة ، ويوم كانت الكلمة فيها للسيف الراعف والساعد القوي ، ويوم كانت مصائر الناس ومقاديرهم في قبضة رثنية ساذجة ، ويوم كانوا هم انفسهم عبيداً لاصنام لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرراً ، اصنام من نحاس بليد جامد ، او من تمر يلتهمه عباده اذا جاعوا .

بداية المعجزة :

في تلك الغمرة من الضلال ، اشرقت في بيت من بيوت قريش طفولة كانت في سجل الزمن صفحة بعث وانطلاق .. فلاق ولد محمد بن عبد الله وولد معه تاريخ

جديد حافل بالاحداث التي قدّر لها ان تكون يوماً مرتكزاً لنهضة جبارة ،
وغد مجيد .

وشب اليتيم ليضطلع باعباء الرسالة ويشنّ على الوثنية حرباً لا هوادة فيها
ولا لين ، ويدعو الى اله واحد لا شريك له ، ويركز في نفوس العرب قيماً جديدة
قامت عليها ركائز وثبتهم الكبرى التي حركت ركب الانسانية ودفعته بقوة وعزم
الى الطريق السوي والحق المبين .

وقضى محمد وله من العمر ثلاث وستون سنة ، فما هي التركة التي خلفها للبشر
من المبادئ والاسس والاصول ؟

حقوق الانسان :

اما حقوق الانسان فقد كان محمد اول واضع لهذه الحقوق التي ادعتها الثورة
الفرنسية فليخصها قادتها بكلمات ثلاث او شعارات ثلاثة : الحرية والمساواة
والاخوة . ثم انبرت اميركا بعد ذلك تزعم لنفسها السبق وتعلن في وثيقة الاستقلال
عام ١٧٧٦ انها تعدّ الحقائق التالية من البديهيات :

● خلق الناس جميعاً متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقاً خاصة لا تنتزع ،
منها : الحياة والحرية والسعي وراء السعادة .

● اما المساواة ومعناها ان يكون الناس جميعاً متساوين امام القانون ،
متساوين في الحقوق والواجبات ، فقد اكدها محمد بقوله : « الناس سواسية
كأسنان المشط » ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » و « كلكم لآدم و آدم
من تراب » .

ولم يكتف بالقول المجرد بل أتبعه بالعمل الحازم العادل . واجاب صاحبه حين

طلبوا منه العفو عن سارقة لشرف أسرتها ومكائنها : « انما أهلك من كان قبلكم .
انهم كانوا اذا اذنب الضعيف فيهم عاقبوه ، واذا اذنب الشريف تركوه ، والله لو
ان فاطمة بذت محمد سرق لقطع محمد يدها » .

● واما المساواة في القضاء فلم يكن للنبي العربي سوى مجلس قضائي واحد
يمثل امامه الناس كلهم دونما تمييز بين رفيع ووضيع ، وغني وفقير .

● واما المساواة في التوظيف فليس ادلّ عليها من هذا الحديث الشريف
« من ولي رجلاً شيئاً من امور المسلمين وهو يعلم ان فيهم من هو أولى منه فقد خان
الله ورسوله وجماعة المؤمنين »

● ومثل هذا يقال في الضرائب فانها تجبى من الناس على قدم المساواة فمن
كثر ماله كثرت تكاليفه ومن قلّ ماله قلّت تكاليفه .

● واما الاخوة فالنبي العربي هو اول من نادى بالاخوة العقائدية والاخوة
الانسانية : « إنما المؤمنون اخوة .. والانسان اخو الانسان أحب ام كره » .
وهو اول من آخى بين الانصار والمهاجرين حتى تقاسموا البيوت والاموال ،
واول من خص الفقراء والمساكين بحظ موفور من موارد الدولة حتى بات
هؤلاء يشعرون بالوجود الصحيح والكرامة الكاملة في امتهم وشعبهم . ولقد
تأثر خلفاؤه من بعده بهذا السلوك الانساني الرفيع ، فاعطوا الامائيل في
التغاضي ، وما ونوا عن الجهاد لتحطيم الجواجز الطبقية واشاعة المساواة والعدالة
بين الناس

● اما الحرية . فقد هيا لها الاسلام انقى الاجواء ؛ لقد حرم الشرك بكافة
صوره وحاربه بكافة اشكاله ، فالله العلي الاعلى هو وحده رب الناس . فمن يعبد
غير الله فهو مشرك ، ومن يستعبد غيره فهو ايضاً مشرك ، وفي هذا قضاء على
كل انواع العبوديات . لقد حرر الاسلام الناس من الرق اولا ، حرر اجسادهم
من سوط السيد وطغيانه ، ثم حرر بعد ذلك افكارهم وعقولهم ، وفي ظلّ هذا

التسامح وقف خليفة قوي الشخصية عبقرى الرأي هو عمر بن الخطاب وصاح في وجه أولئك الذين يطمعون في استعباد الناس وأذلّهم صيحته التاريخية المشهورة: « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

الاسلام والعقائد

ان انصع صفحة ترصع تاريخ الاسلام هي الصفحة التي خلّفها بهلاقاته مع الأديان وآثاره في معاملتهم . لقد كان لقاءه مع المسيحية واليهودية لقاء محبة واحترام : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » . وكان شعاره في رسالته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما كان شعاره في دعوته : « لا اكراه في الدين » .

ويحق لنا ان نقول بفخر ان الاسلام كان يحمي حرية المعتقد ، ويحتضن بالذات أهل الذمة

ولم يسمع عن رسول الله وعن خلفائه من بعده انهم قتلوا نصرانياً لانه لم يسلم ، ولم يسمع عنهم انهم عذبوا كتابياً او سجنوه او منعوه من التعبد ، واقامة شعائر دينه ، ولم ينقل عنهم انهم خلال فتوحاتهم الحربية ودعواتهم السلمية ، هدموا كنيسة او قوَّضوا بيعة وانما قال التاريخ : ان رسول الله صالح نصرارى نجران فكتب لهم عهداً جاء فيه

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على اموالهم وانفسهم وملتهم وبيعتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت ايديهم من قليل او كثير ، لا يغير اسقف من اسقفته ، ولا رادب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يحشرون ولا يحشرون ولا يطمعون ولا يطمعون » .

المسلمون واهل الكتاب :

ولقد كان للاسلام مع اخوانه اتباع الاديان السماوية الاخرى قصص يرويها التاريخ باعجاب واكبار وتقدير ، اعجاب بالدين الذي حارب من اجل العدالة وبذل من اجل سيادة الحق ، وتفانى من اجل الكرامة الانسانية ، الدين الذي لم يكن بينه وبين مواطنيه من اتباع الديانات الاخرى ولا محتوم ولا طاعة مفروضة ، بل كان بينه وبينهم احترام متبادل ووفاء عظيم ، تفيض به قلوبهم وتتفاعل به نفوسهم ولقد كان من صور هذا الوفاء ، كما حدثنا البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل جموعه ، وجيش جيوشه وسار الى المسلمين ، بعد ان خرجوا من وقعة اليرموك واكاليل الغار على نواصيهم ، وبعد ان كانوا قد استوفوا الخراج من اهل حمص ليدفعوا عنهم اذى الحرب وليغزوهم عناء القتال . قال البلاذري : « رد المسلمون على اهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم ، فقال اهل حمص ، لولايتكم وعدلكم احب لنا مما كنا فيه من الظلم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وقال البلاذري ايضا : « ونهض اليهود - اليهود انفسهم - قائلين : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان تغلب ونجهد . فاغلقوا ابواب المدن وحرسوها وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود » .

راي مؤرخ غربي :

ولنستمع الآن الى مؤرخ آخر ، انه (آدم متر) حيث يقول :
« ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى واعيادهم ويأمرون بصيانتها وان الحكومة في حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها

النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النصارى في الابواب ، وان
الاديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت . ولم يقف تسامح المسلمين عند هذا الحد ،
فهذا آدم متري يقول مظهراً استغرابه وتعجبه : « من الامور التي نعجب بها كثرة
عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية فكأن النصارى هم الذين
يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام » .

جريمة الاستعمار :

ان ما فتحنا عليه اعيننا من انشقاق وطني وتباعد عاطفي ، وتباين في الغايات
والاهداف .. كل هذا صنعتها ايدي المستعمرين .. فانهم لم يجدوا حيلة انفذ ولا
وسيلة ادهى من ان يلبسوا مسوح المتدينين ، ويلقوا على صدورهم اوشحة الصالحين
ويرسموا على وجوههم براعة القديسين ، وهم — في الواقع — ابعد ما يكونون عن
طهارة الدين وترفع رجاله ، ونواياهم ادنى من ان توصف بالغيرة على مصالح
الاله ، لانهم يعبدون انفسهم ، ويقصدون مصالحهم ، ويحترمون تجارتهم ، وما
الله والدين من بعد ذلك الا وسيلة ناجحة يفتحون بها اسواقاً جديدة ، ويستعبدون
بها شعوباً ضعيفة ، ويمتلكون بها بلاداً واسعة غنية .

ولقد كان من حسن حظ الاستعمار في السابق ، ان هذه البلاد خضعت في آخر
ايامها لحكم يحمل الاسم الاسلامي وليس فيه شيء من روحه او مقاصده وليس له
مثل طريقته او منهجه : وكان المسلمون تائهين في غمرات من العمالة والجهل
والفوضى ، جعلت بلادهم مسرحاً عجيباً من المتناقضات والمتباينات . فباسم الدين
والصيانة الطوائف ، تقيم هنا دولة من الدول ، وباسم تحضير الناس وتدينهم تقيم
دولة هنالك ، ولا تتورع هذه الدولة من ان تحتضن زوراً وبهتاناً طائفة من الناس
وتصطنعهم لنفسها ، لتقف في وجه الدولة الاخرى التي تحتضن طائفة اخرى .

ويا ويح الشرق ! لقد لبث فترة طويلة من الزمن تحارب يمينه شماله ، ويقا تل

شقيقته شقيقه ، ويحيد النار مندلعة في داره ، يحترق منها كبده ولا يدري انه هو وقودها ، وان ابنائه هم حطبها ولهبها ، ولا يدري انه يسير مغمض العينين الى هاوية ليس لها قرار .

لا تعصب في الاسلام :

لم اشأ التبسط في هذه النقطة الا لاني وعداً قطعتة من قبل بأن اظهر انسجام الاسلام في حقيقته مع غيره من العقائد ولأقرر امراً هو ان الاسلام في صفاته بعيد جداً عن التعصب ، وان الجهل او الغرور او الدس الاجنبي او هذا كله مجتمعاً هو الذي أثار في فترات مختلفة من تاريخنا شيئاً من الحقد والريبة وروح العدا بين المسلمين وغير المسلمين .

غير ان الامل يخضوضر الآن في نفوسنا ، ويملؤنا ثقة وایماناً بوحدة الشعوب وتآلفها . وذلك بعد ان برز الوعي الاجتماعي الى الميدان ، وبدأت تبشير النهضة العربية على هذا النصف الاخير من هذا القرن ، وظهرت نتائجها الحلوة الباهرة بتحطيم امانى الاستعمار في اكثر من معركة واحدة ، وارتفعت مطارقها لتهوي على رأس الاستعمار نفسه . . وان غداً لناظره قريب .

الاسلام والمدنية

تلك هي الانتصارات المعنوية التي سجلها الاسلام في بداية عهده حتى اخذ بناؤه يتشامخ ، ورقعته تتسع ، فتراه بعد ان اطمأن الى الوضع الروحي والخلقي وحقق حلم الانسانية بالرخاء والسلام والعدالة ، تفرغ بعائنه وفلاسفته وادبائه وصناعاته ومفكريه الى العمل المثمر المنتج ، تفرغ كل هؤلاء ليعطوا للانسانية حضارة من ازهى الحضارات ، وليتركوا للناس ميراثاً غنياً بالفوائد حافلاً بجلائل الفتوح .

الانتصارات العلمية والعملية :

وسنلقي الآن نظرة عجيلى على انتصارات الاسلام العملية والعلمية في سائر الميادين والتي تضيفي على المجتمع الصفة الحضارية والقيمة المدنية .

لقد تعلم العرب اللاتينية والاسبانية ونقلوا عنها ، حتى اذا اشتدّ عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو ولم يلبثوا ، كما يقول غوستاف لوبون ، « ان ادركوا ان التجربة والترصد خير من افضل الكتب فانطلقوا من قيود التامذة لليونان واخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونها » . قال (دولامير) ، صائب تاريخ علم الفلك : « اذا اعددت بين الاغريق راصدين او ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، امكنك ان ترى بينهم عدداً كبيراً من الرصاد » .

واما في الكيمياء فيقول (غوستاف لوبون) : « انك لا تجد عالماً يونانياً استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعدّ مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة ، فجابر بن حيان استاذ لـ (لافوازييه) ، ابي الكيمياء الحديثة .

❶ لقد عرف العرب الرياضيات فاخترعوا الجبر وطبقوه في علم الهندسة ، وبرعوا في الفلك فاقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطميطلة وقرطبة ، وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم في اوربا الا بعد الف سنة ، ونبغ منهم في هذا العلم امثال البتاني وابناء موسى بن شاكر وابو الوفاء البيروني .

❷ وعرفوا الفيزياء والميكانيك واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب واتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ . وثبت علمياً انهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

❶ وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تكتب على الرقوق، وهي الجلود، كان العرب يستعملون الورق وتزدهر في بلادهم مصانعه وينتج عن ذلك نشاط في حركة التدوين والتأليف والنقل يُثري المكتبات العامة والخاصة ويزود الثقافة العربية بزيادة لا ينفى .

❷ واقتحم العرب البحر ، فخاضوا عبابه ، واذلوا متونيه بأساطيلهم ، واستخدموا في الملاحة البوصلة فكانوا بذلك اول من استخدم هذا الاختراع الصيني في اسفارهم .

❸ وبحثوا في الجيولوجيا وتحولات الكرة الارضية واعلن ابن سينا ان هذه التحولات انما هي نتيجة تطورات بطيئة تمت بتعاقب العصور ، وجاء علم الارض الحديث يشهد صحة هذه النظرية .

❹ وبحث علماء العرب في النباتات واستخدموا الكثير منها في اغراض طبية وانشأوا لها الحقائق وزرعوا فيها اندرها واجودها .

❺ وظهرت مواهبهم غنية خصبة في الطب فأثروا بمؤلفاتهم المكتبة الغربية وظلت هذه المؤلفات مصدراً ومرجعاً تعتمد عليه الجامعات الاوروبية في تدريس هذه المادة ، ونبع فيهم «امثال الرازي» الذي بحث في الحميات ذات البثور كالخصبة والجذري وامراض الاطفال وعلم التشريح ، و«علي بن العباس» الذي كتب في الطب النظري والطب العملي ، والرئيس «ابن سينا» الذي نقلت كتبه الى اكثر لغات العالم وظلت مرجعاً عاماً لاطباء العالم واساساً لادبائهم الطبية في جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون ، ولم ينقطع اطباء جامعة (مونبليه) عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ اقل من قرن .

و «ابو القاسم» القرطبي اشهر جراحى العرب الذي اخترع كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه والذي قال فيه العالم الطبي الكبير (هالدر) : «كانت

كتب ابي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

● وعرف العرب علم الوقاية وانشأوا المصحات واقاموا المارستانات ، وبرعوا في فن الصيدلة وتحضير العقاقير .

● ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى والغناء في بعض عهودهم ، وترقى فن العمارة وتميز ، بعد ان مرّ بأدوار تقليدية ، بطابع خاص ما تزال شواهد قائمة في بلاد المجد المفقون ، في قرطبة واشبيلية والحجراء .

ما هو سبب الوهن :

هذه هي الدلالات التي يعرفها الناس ويتناقلها الرواة ، وتزدحم بها بطون الكتب وهي خير شاهد على ان الاسلام قد اوجد من العرب ومن معتنقيه جميعاً امة تعرف رسالتها وتدرك طبيعتها وتؤدي واجبها .. واجبها الذي ينحصر في كلمة واحدة هي الدعوة الى الله والنهوض بالعلم ؛ واني لو افترطت في ايراد الامثيل واثبات الشواهد لا عياني ذلك واجهدي لان الكتب حافلة باخبار العظمة .. عظمة الخلق الاسلامي ونبله ، فياضة بانبياء ذلك الطراز الرفيع من السلوك الاجتماعي والفردية الذي اتاح لدعاة الاسلام ان يسيطروا على معظم العالم القديم المعروف آنذاك ، وان يجعلهم في نظر الشعوب المغلوبة على امرها هداة لافاتحين ، ومهذبين لا منككدين .

ما الذي اوهن اذن هذه الدعوة ؟

من الذي جعل المسلمين في آخر الركب الحضاري ، واطمع كل ذي نزوة او رغبة بهم ؟

هل فقد الاسلام حيويته ، ام ان المسلمين هم الذين فقدوا اخلاصهم ؟

اخبار الانحطاط :

من حق القارىء علينا ، ان نروي له اخبار الانحطاط في المسلمين كما روينها اخبار البعث وذلك لكي تترابط حلقات البحث وتستكمل دراسته .

لقد بدأ البناء الاسلامي ينهار من اللبنة الاولى ، من لبنة الايمان التي سواها نبي الاسلام محمد ﷺ ، فالفكرة الاولى محصورة بالمسلمين دون سواهم ، وهي في العرف العقائدي الطريقة التي رآها الاسلام مثلى في تنظيم علاقات البشرية افراداً وجماعات بربهم واخلاصهم له .

والفكرة الثانية ، هي الجهر بهذه العقيدة بعد فهمها روحاً ومعنى ، وتطبيقها بالحسنى ، دون انتقاص من حق شريعة من الشرائع او مجافاة لعقيدة من العقائد او اكراه زيد او عمرو من الناس .

صور قائمة :

غير ان المسلمين بعد عصر الراشدين مباشرة بدأوا في تحوير هذه المبادئ وتسخير بعض العواطف ، وهكذا تابعوا السير ينقضون في كل عصر فكرة ، ويزلزلون في كل حقبة عقيدة ويبدلون في كل فترة رأياً ... حتى كان عصر الانحطاط وانصرف الناس عن الدين كعقائد مقرونة بالاعمال ، وروحانية مقرونة بالبحث النظري والوعي العامي ، وتمسكوا به (اي بدينهم) كالفاظ واردة وتقاليد جامدة ، وتعصب فريق منهم تعصباً اعمى لهذه التقاليد ببلاهة وجمود لا يصدقها العقل ، واولع فريق آخر بالجدل العقيم والمناظرات الفارغة ، وحمي وطيس الآراء والمذاهب فيهم ، وبالرغم من ان اصحاب المذاهب من الاولياء الصالحين فان اتباعهم في خراسان (في آخر الدولة العباسية) كانوا يتطاحنون ،

ويتذابحون وتنهر بينهم الدماء ، ولقد روي ان اهل قرية منهم من الشوافعة قد افنوا اهل قرية اخرى عن بكرة ابيهم ، لا لانهم من عبدة الاوثان بل لانهم من الاحناف . كما روي عن فريق من هؤلاء الاحناف اقوال لا ذعة بالنسبة لآخوانهم الشوافعة ، منها « ان من ارتحل الى مذهب الشافعي يعزّر » .

ولقد كان طبيعياً والحالة هذه ان تنتقل السلطة والرياسة الى غير العرب من الفرس والماليك والأتراك ، وذلك بعد ان انغمس اولئك في بحر من الترف والنعيم وتاهوا في خضم من المتع واللذات ؛ تحمر لذكراها وجنة التاريخ أسى وتدمع لها عينه لوعة .

وكان طبيعياً ايضاً ان تنحط الحياة الفكرية انحطاطاً لا مثيل له في تاريخ الامم وان تهمل العلوم العالية والمعارف الكونية وان يهدر الوقت ويضيع الجهد — ان كان هناك جهد في فلسفات نظرية عقيمة ودراسات بيزنطية فارغة — وان تعمل كل هذه المعاول في تهديم كيان المدنية التي زهت في بغداد وازدهرت في دمشق وان تكون نهباً مقسماً ومفتماً يسيراً لكل طامع قوي .

درس في ملك رنج :

قال رتبيل ، ملك رنج وسجستان ، لرسول يزيد بن عبد الملك ، وقد جاؤوا اليه يطالبونه بالخراج ؛ وهو اول مظهر من مظاهر قوة الدولة وسلطانها ، قال لهم : ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون بسود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ فقالوا له : انقرضوا ، قال : اولئك اوفى منكم عهداً واشد بأساً وان كنتم احسن منهم وجوهاً ، ثم منع الخراج عن امراء المسامين وخلفائهم .

عصور مظلمة :

ومرت بعد ذلك على المسلمين عصور كالحلة السوداء ، شديدة الظلمة ، اذا

تتبع اخبارهم الدارس فانه لا يصدق انهم احفاد اولئك الميامين الذين سبق ذكرهم ، ويتردد في ان ينسبهم الى تلك السلسلة من الابطال امثال : ابي عبيدة وخالد وعمر وطارق وصلاح الدين .

لقد محت جحافل التتار والمغول معالم العظمة وسياء البطولة والفداء في تلك الامة ، وكأنهم قد استبدلوا الجبن بالاقدام ، والوهن بالشجاعة ، والذل بالاباء ، والخوف بالشهم .

الهوان العجيب :

روى لنا ابن الاثير حادثة أليمة علّق عليها بقوله : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها ، كارهاً لذكرها ، فانا اقدم اليها رجلاً واؤخر اخرى ، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي المسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ ولو قال قائل ان اهل العالم منذ خلق الله آدم لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .. »

اما هذه الحادثة فهي ان احد التتر اخذ رجلاً ولم يجد ما يقتله به؛ فقال له ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقي الى ان اتى التتري بسيف وقتله !!

المرأة الجبارة :

وحادثة اخرى وهي ان امرأة (اجل امرأة) من التتار دخلت داراً وقتلت جماعة من اهلها وهم يظنونها رجلاً ... ويقول ابن الاثير : وامثال ذلك كثيرة ويكفي ان نعلم ان الناس كانوا يتناقلون فيما بينهم ان من حدثك ان التتر انهزموا فلا تصدقه !

عصر الدولة العثمانية :

سأقف عند هذا الحد من عرض الصور عن المخطاط المسلمين وذلك لان الجميع يعرفون ماذا حدث بعد ذلك . يعرفون ان النكبات توالى وان الغرب فتح عينه على الشرق او على الاصح فتح فاه .

ويعرفون ان الدولة العثمانية قد أرخت جناحها المظلم على بلاد المسلمين ، وبدأ في نهاية حكمها عهد اسود من المظالم والويلات والطغيان ، ويعرفون كيف ألح الهزال على الرجل المريض ، وكيف طمع الغرب في تركته الضخمة حتى اذا كانت الحرب الكبرى اغتنمها الذئب المتربص فرصة للانقضاض على هذه التركة ، ويعرفون كيف استأثرت باليراث اقوى دول اوروبة (انكلترا وفرنسا ، والى جانبها ايطاليا) ، ويعرفون كيف مدت هذه الدول الثلاث سلطانها تحت اسماء مختلفة من احتلال واستعمار وانتداب ووصاية .

حاضر الاسلام :

بعد هذا العرض المفصل نرى ان الامة الاسلامية — كطائفة ذات عقيدة واسلوب خاص في الحياة — قد خضعت ، شأن بقية الامم والشعوب ، للقاعدة الاجتماعية التي تجعل تاريخ الامة مهما امتدت اصوله ومهما تمازجت فروعها ، يتبع منهجاً واحداً هو : الطفولة والشباب والشيخوخة .. ثم الانبعاث ...

وامنيتي ان اكون قد وفقت في تنوير الاطوار الثلاثة الاولى لحياة المسلمين . واستخراج الحكمة من مكنونات احداثها لما في ذلك من علاقة وطيدة بعقيدتهم ودينهم .

بقي الآن ان نتطلع الى الحاضر .. وان نتشوف المستقبل .

ان حاضر الاسلام زاخر كالبحر الخضم تصطخب على اديمه امواج مواترة وان

الشعوب الاسلامية اليوم تتفاعل في رحابها قوى ناشئة، وتتعاظم في ارجائها طاقات
فتية خلاقة، صلب عودها واشتد ساعدها، نفضت عن اثوابها غبار الماضي وعن اعينها
نعاس الظلام بعد ان امتدت اصابع النور من فجر النهضة توقظ فيها كوامن
الحياة وبواعث الانعتاق ، في هذه الفورة التي يلمحها المعنيون بدقائق الامور في
الشرق والغرب، لا بد لنا ان نقرر ان حركة الاسلام — ان صح التعبير — في القرن
العشرين غير حركته في القرن الثامن ، فقد انتفت بينه وبين الدنيا فوارق الزمن
وحواجز التقاليد .

ولم يعد امامه منفسح من الوقت او من المكان يهتم فيه بالدعوة الى الله ..
كما كان يفعل في حقبة شبابيه لان كلمة (الله) سبحانه وتعالى فقدت سحرها
ولم يعد لها اثر في ادمغة البشر ، ولان فريقاً منهم اصبح ينظر الى نفسه ويقول
اين الاله ؟ ولان المسلمين انفسهم لهم من دنياهم ما يشغلهم عن آخرتهم ولهم من
ذاتهم ما يغفل ايديهم عن اهدافهم

غير ان هذه الاوضاع ، بتعقيدها وصعوبتها ، وهمومها واحزانها ، وكفرها
والحادها ، لا تعني ان الاسلام فقد مكانه في الوجود .. وفقد عمله في الخلق .

انقاذ وقيادة :

لا ، ان الاسلام ما دام حياً نابضاً في جوانح رجاله ليحمل امانته العظمى
ورسالته الكبرى ، التي ظل يحملها في اطوار حياته الناهضة والجامدة ، السعيدة
والبائسة ، هذه الامانة هي انقاذ الانسان من حيوانيته ، والسمو به الى روحانية مترفعة ،
هي قيادة الناس نحو احترام ذاتهم لا بانكار الاله ورفض هيمنته بل بعرفة الانسان
وادراك واجبه وطبيعته ، فان كل ما نشاهده من تمكن الحق بين البشر ،
واستحكام البغضاء فيهم ، حتى لا تمر فترة على الارض دون ان يختضب اديمها

بالدماء ، وتلفها عبادة كالحلة من النار والبارود والدمار ، ان كل هذا يدل على ان الانسانية بحاجة الى الاسلام والى كل دين سماوي آخر .

الصراع المقدس :

ان الصراع القادم ليس بين الاسلام وبين التيارات المادية والنزعات اللاحادية فحسب ؛ انه سيكون صراعاً مرّاً بين قوى الخير وقوى الشر ، بين الروحانية بوداعتها وثقتها ، والمادية بجبروتها وجحودها ، ولن تقتصر نتائج هذا الصراع على مبدأ بعينه او عقيدة بذاتها فتحكم عليها بالفشل او تنعتها بالمجود ..

لا .. فان الالحاد ميكانيكي الطريقة ، حديث التفكير ، شديد البطش ، وهو ان يتيح لانفاس الروحانية ان تتردد في صدور المجتمع ، ولن يترك حيوية التدين ان يسري مفعولها في اوصال الناس .. اذ لا حياة للالحاد مع فكرة الله اصلاً ، لانه يعتبرها وهماً نسجه عقل الانسان وخياله في حالة من حالات الضعف والوهن .

اننا متفائلون :

وقد يتساءل البعض عن روح التفاؤل المجهب الذي ابديناه في صدر هذه الناحية من البحث وقررنا فيه امكانية الانبعاث من جديد والجهاد من جديد لخلق مجتمع حر متدين ؟

ان الذي املى علينا التفاؤل ، هو فعالية الاسلام وتطوره ، وعدم مجافاته لوسائل البحث العلمي ، والاستدلال العقلي ، والطريقة المنطقية في الكشف عن معميات العقل الانساني ومجهولاته . والاسلام هو الدين الذي لا يقبل ايمان اتباعه ببيادته ايماناً تقليدياً جافاً ، ولا يرضى ان يكون معتنقوه يحملونه اسماً لا حقيقة ، ونقل لا يقيناً . ومن مبادئ القرآن الكريم : « فاعلم انه لا اله الا الله » وهو حين لا

يقبل من ابنائه الا علماء راسخاً على قواعد المنطق بالوحدانية ، يدعوهم بالتالي الى العلم بكل صغيرة وكبيرة حولهم والاحاطة بكل مجهول لديهم ، كما يدعوهم الى البحث في اعماق السماء وما يتلأأ فيها وفي ارجاء الارض وما يدب عليها فيقول لهم : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » وطبيعي جداً ان النظر المطلوب هنا انما هو النظر العلمي البحث المقرون بالسمو الخلقى .

فالاسلام المتفاعل ، المتطور ، المتسلح بالعلم والمعرفة ، جدير اذن ان يقف وجهاً لوجه مع دعاة المادية ومهرجي الاحاد . وهو بوجهه الصافي وادبه الناصع خليق ان يكشف سوءاتهم حين يقابلونه ، وخليق بان يظهر لهم مواطن الضعف فيهم ، ومواطن الانحلال في طريقتهن .. إذ لا يدحر الظلام الا النور ولا يذهب السواد الا البياض .

لاسلام والنظريات المادية :

ان تاريخ الدعوات المادية يدلنا على انه كان وليد ازمات خانقة لبعض انطوائف التي قمتها الاستغلال .. وتطلب اي ربح .. الا الربح الحلال .. ومن منا لا يعلم ان الصهيونية حين فكر علماءها ان يسيطروا على الغرب ويهيمنوا عليه بنظرياتهم حفظاً لانفسهم من العصبية الروحية التي كانت تسيطر على دول اوربا ، وضعوا بذور النهضة العلمية المادية البحتة ، وشرعوا بمحاربة العقيدة الروحية محاربة لا هوادة فيها ولا لين سواء بايديهم او بايدي عملائهم او بوسائل الاغراء والتمجيد لكيان الملحدين . وليس ادل على ذلك من تلك المؤلفات التي ظهرت في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر طافحة ببذور الاحاد تدسها في كل ناحية ، مليئة بسموم المادية تنفثها في كل مكان . على ان القرن العشرين ما كاد يطل حتى اصبحت النظرية المادية تسيطر على العالم من كل جانب ، وحتى امتدت اصابعها الى اوساط التشريع ، ودست انفها في المذاهب الفلسفية الحديثة فسمعنا بـ(ماركس)

و (انجلز) وسواهما كما سمعنا بالشيوعية والفاشية والنازية وغيرها من المذاهب الاشتراكية والتي سيطرت على الجامعات وكافة الاوساط العلمية واستطاعت ان تخضع لمنطقها بعض الاوساط الدينية .. وحين اشتدت الصلة بين الشرق والغرب واخذ طلابنا يتوافدون للدراسة لم يستطيعوا ان يتبينوا تلك النوايا الخفية التي دسها علماء المادة في الغرب في معطيات الفكر فنقلوها الى الشرق بقضها وقضيضها وخيرها وشرها ، نقلوها وهم يتباهون فخراً بالمظاهر الجديدة والافكار الجديدة .. وظنوا انهم باذاعتهم اياها انما يدللون على مبلغ علمهم وسعة ثقافتهم .. وفاتهم ان الافكار التي بهرتهم جدتها ، وخلبتهم جرأتها ، وسجرهم امم مبتكرها ، واعماهم حب التقليد عن التبصر والتفكير ، اجل فاتهم ان هذه الافكار ليس فيها من الجديد الا اسمها .. أما نتائجها .. وما تضمنه للمجتمع من الرخاء والسعادة .. فأمر سبقتها اليها الاسلام وقررها منذ خمسة عشر قرناً تقريباً .

فقبل ان يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية كان الاسلام اباً للاشتراكية ، وكان محمد بن عبد الله امامها الاول .

الاشتراكيون انت امامهم	لولا دعاوى القوم والغلو
ولو ان انساناً تخير ملة	ما اختار الا دينك الفقراء
داويت متئداً وداووا طفرة	واخف من بعض الدواء الداء

فالضمانات الاقتصادية التي جاء بها الاسلام ، وبوسعها ان تغني المجتمع عن المبادئ الاشتراكية وسواها من المبادئ ، كثيرة اهمها : الزكاة والوقف وقانون الوراثة وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ومبدأ المصالح المرسلة ومبدأ شيوع الموارد العامة ومبدأ تحريم الترف ومبدأ تحريم الكنز . وفي هذه الضمانات تظهر الخطوط الاشتراكية العملية التي يمكن لنظام الاسلام الاقتصادي بها ان يتوضح وان يستقر

اما من الناحية الاجتماعية فبوسع الاسلام ايضاً ان يحقق العدالة الاجتماعية وان يهدم حواجز الطبقات وان يقيم اركان المجتمع الفاضل .

العمال بنظر الاسلام :

ولئن كانت النظم الاجتماعية والاشتراكية منها بوجه خاص تتغنى في عصرنا الحاضر بما حققته لهواطن من ضمانات وللعامل من حماية ، فانظروا الى اي حد يقدّم الاسلام هذه الضمانات و الى اي مدى يمجّد الطبقة الكادحة ؛ فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما كسب رجل كسباً اطيب من عمل يده » ؛ وروي انه ذكر للرسول مرة رجل كثير العبادة ولكنه لا يعمل فقال رسول الله : « من يقوم به ؟ » قالوا « اخوه » ، قال النبي عندئذ : « اخوه أعبد منه » ، ثم قال : « ان الله يحب العبد المحترف » ؛ ومرت النبي يوماً على رجل فرأى اصحاب الرسول من جلد هذا الرجل ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه ؛ قالوا : « يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله » فقال الرسول : « ان كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » ؛ وورد ان الرسول عليه السلام قبل يداً ورمت من كثرة العمل ثم قال : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ؛ كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » ؛

مثل ومزي :

فأي تمجيد للعمل ، يفوق هذا التمجيد ؟ ألا يوازي هذا على الاقل التكريم الذي تريده الاشتراكية للعمل والعمال اما العامل فقد حمّاه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه وحذر من انتقاصه والافتئات عليه ؛ وضرب لذلك مثلاً فيه كثير

من البساطة ولكنه رائع التلقين ، فقد حكي ان رجلا آواهم المبيت الى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم ، فدعا كل منهم ربه باحسن عمل قدمه في حياته كي ينقذه من ورطته ، فكان الاول براً بوالديه ، والثاني حفيظاً على الاعراض ، وتوجه كلاهما الى الله بصالح عمله فانفرجت الصخرة قليلاً عن فم الكهف ، غير ان ذلك لم يكتسبهم من الخروج حتى قال الثالث : « اللهم اني استأجرت اجراء واعطيتهم اجرهم غير رجل واحد ترك الذي له فشمّرت اجره حتى كثرت منه الاموال فجاءني بعد حين فقال لي : يا عبد الله أدّ لي اجري ، فقلت له : كل ما ترى من الابل والبقر والغنم فهو من اجرك ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ، فقلت : اني لا استهزئ بك ، فأخذه كله فاستاقه امامه فلم يترك منه شيئاً . ثم قال : اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون . »

هذه القصة الرمزية درس رائع في تقديس حق العامل ، فانت في نظر الاسلام حين تبرّ العامل فكأنك تبرّ والدك وتحمي عرضك ، وانت في نظر الاسلام حين تحفظ للعامل حقه تؤدي الله عبادة ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين واتباع اوامره الله .

الضمان الاجتماعي :

ثم ما هو موقف الاسلام من الضمان الاجتماعي الذي يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ والى القارىء بعض الامثلة الاسلامية في هذا السبيل : سبق الى عمر بن الخطاب في عام الرمادة ، وهو عام مجاعة ، اعرابي اتهم بالسرقة . ولما سئل الاعرابي عن التهمة اعترف ان الدافع الذي دفعه اليها قامر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجني يديه ، وعبثاً حاول ايجاد عمل لنفسه يقيه واطفاله شر

الجوع فلم يفلح . فقال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم ، فاجمعوا على تطبيق الحد بحقه ، ولكن عمر ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بشاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الاساسية ووجوب تأمينها للعمل للجميع واعتبر اغفالها لمثل هذا الاعرابي الفقير تقصيراً في القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن فالتفت الى الاعرابي وفي عيذه دمعة اكبر من السحاح وانبل ، وقال له : اذهب يا اخا العرب ولا تعد لمثلها . ثم التفت الى اصحابه وقال لهم : اجروا عليه من بيت المال الى ان يجد عملاً .

ولن اسرد للقارىء قصة هذا الخليفة العظيم مع الارملة العجوز ، فكل قارىء يعرفها ويعرف دلالتها الاجتماعية ، كما يعرف بلا شك قصته مع ذلك الشيخ الذمي الذي رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذراً وقال له : ما انصفناك ! اخذنا منك الجزية شاباً وضيعناك شيخاً . ثم امر بان يرتب له من بيت المال ما يكفيه في شيخوخته ويحنبه ذلّ السؤال .

من هذه الامثلة ، يتضح لنا ان الاسلام يعرف انواع الضمان التي شاعت في النظم الحديثة كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

اما الاسلام السياسي فانه يعطي العالم كله امائيل رائعة في النبل والتسامي والاخوة والمساواة والدفاع عن الحريات وحب السلام والديمقراطية الصحيحة .

كيف نتم عملية الانبعاث :

السؤال الآن : ما العمل ؟ كيف تكون خطة الانبعاث ومنهجها ؟ وما هو الواجب الملقى على عاتق الاسلام كدين سماوي ليحفظ القيم الانسانية ويصونها من عبث العابثين ومكر الماكرين ؟ ومن هو الذي يحمل القدر الاعظم من مسؤولية هذه الرسالة الكبرى ؟

ان الاصابع كلها تشير الى ان المتهم هو الدولة والفرد . وحذان المتهمان يحملان مسؤولية الضياع وعليهما تتوقف نتيجة الانبعاث .

اما الدولة او المجتمع فعليها ان تحقق العدالة بمفهومها المطلق . وان تطبق الحق وان تنهج نهجاً سامياً بنّاءاً . . . وهذه المبادئ وحدها اذا كانت محمية باسم الدولة كقيلة بان تضبط المجتمع فلا يتحلل ولا يتدنّى ولا يتباغض ولا يتباين ولا تأخذه الافتراآت او الاكاذيب ، ولا تؤثر فيه بسهولة ويسر دعوات المدمم المغلف بالغيرة على البائسين والكادحين والفقراء ، ولا تؤثر فيه افتراآت الحرية الفكرية والانطلاق العقلي الذي ليس وراءه الا نسف اليقين بالخير والثواب ؛ وتدمير الايمان بالحق والفضيلة . . . هذا هو واجب الدولة .

واجب المعبد والمعهد والبيت :

اما واجب الفرد ومسؤوليته الكبرى في الانبعاث فهي عملية ذاتية . ومسؤوليته العملية تقوم على ثلاث دعائم : المعبد والمعهد والبيت ، لان المعبد ، ان خلاص عمله وتنزهت رسالته ، وادى فريضة الفكر كاملة غير منقوصة ، واستغنى عن شوائب القرون الوسطى وقشور عصور الظلام وتقاليد الجهل والسطحية .

والمعهد ، ان رسمت اهدافه ، وخططت مناهجه ، ورتبت علومه ، وهذبت فصوله .

والبيت ، ان ارسيت دعائمه ، واقامت عمده ، وكان فيه الوالد الصالح والوالدة الفاضلة .

كل هذه الشروط ، لو تيسر تحقيقها ولو وجد الاسلام المصفى طريقه اليها ،

وقيض لها التفاعل مع اسسه ومبادئه ؛ لو كان ذلك اضممت ارضنا أليق الناس بحمل رسالة السماء الى الارض واحفظهم لها واشدهم تفانياً في صيانتها وتقديسها .

بقي ان نتكلم عن مسؤولية الفرد الذاتية والتي تنحصر في شعور كل منا بانه قيّم على معانٍ نبيلة واهداف نبيلة واهداف سامية ، وانه جندي من جنود الخالق ، وليس الشعور فقط بل العمل الجدي المثمر في احقاق الحق والامر بالمعروف ، ولقد كان القرآن الكريم صريحاً في هذه الناحية فاوصى المؤمنين جميعاً ان يكونوا امة من جنود الحق فقال : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

المشكاة الواحدة :

هذه هي صفحة المستقبل ان اردنا مستقبلاً زاهراً يتيسر على الماضي المجيد ، وذلك هو واجب الاسلام ... كما انه واجب كل الاديان السماوية وعلى الاخص المسيحية ، فان الحق والفضيلة لا يتبدلان ولو تبدلت زاوية النظر اليهما . وان الوقت الذي تفرق فيه الاديان بين ابنائها قد مضى الى غير رجعة واصبح اجهل الناس يعلم ان الاديان السماوية اثنا اثبتت من مشكاة واحدة فجميعها من السماء وكلها من وحي الله ، ووحى الله لا يتغير ولا يتبدل .

انه ما جاء دين بعد دين الا ليزيد في هيكل الهداية الربانية ركناً من الاركان او يضيف الى قانونه الازلي مادة من المواد ، او يخصص عاماً او يعمم خاصاً ، او يحدد دارساً او يوضح مبهماً ، او لينسخ حكماً قد انتهى اجله ولم يعد صالحاً للحياة . يقول السيد المسيح : « لا تظنوا اني اتيت لاحل الناموس والانبياء اني لم آت لاحل لكن لا أكمل » ، ويقول محمد رسول الله ﷺ : « الانبياء اخوة ابوهم واحد والامهات مختلفات » ، ويقول الله تعالى عن القرآن الكريم : « انه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل » ، ويقول : « قولوا آمنا بالله وما انزل اليه وما أنزل الى ابراهيم

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى ، وما اوتي
النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم » .

متى ؟

ان محنة الانسانية كبرى . وعلى الاديان السماوية عامة ان تبدأ جهادها : وعلى
الاسلام خاصة ان يباشر في اعادة البناء ، بناء الطود الذي ما زال يراود اخيلتنا ،
ويداعب ظله امانينا ، وتلك هي الخطوة الاولى نحو السعادة التي تنشدتها الدول ،
والسلام الذي تحار في ايجاده ، واللبننة الاولى التي يتسامى بعدها هيكل شامخ ،
من المحبة الانسانية والتفاهم البشري والسعادة العالمية .

« ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريباً » .

أحرّيات العامّة في الإسلام

● إن أول حرية نادى بها الإسلام هي حرية الإنسان الشخصية ، على هذا الأساس منح الإسلام العبيد حرياتهم ، فأوجد للسيد حدوداً لا يتعداها في معاملته لرقيقه .

● حطم الإسلام أغلال الإنسان وأنبرى يعطيه حرياته ويدافع له عنها بعزم وبسالة .

● إن الجهل والفرور والفساد الاجنبي ، هو الذي أثار الحقد والريبة ، في فترات من الزمن ، بين المسلمين والمسيحيين . والتاريخ جدير بأن يعطينا العبرة والموعظة في هذا السبيل .

جاء الإسلام في عصر كانت البشرية فيه تتردى في مهاوي الجهل والتأخر ، وتقاسي أشد المحن ؛ وكانت المجتمعات القبلية لا تعرف معنى للحرية بفاهيمها الحديثة اللهم الا حرية الغزو والقتل والسي ؛ فأراد الإسلام ان ينظم حياة الفرد لانه كان يعلم انه متى نظّم الفرد استطاعت الأمة ان تقيم دولة وان تعطي حضارة وان تدفع ركب الانسانية الى الامام .

وأول مشكلة مزمنة من مشاكل العبودية جابها الاسلام ورأى انها توقف التطور الاجتماعي وتحول دون رقي المجتمعات هي مشكلة الرق .

فالانسان : هذه الثروة البشرية الكثيرة الطاقات المتنوعة النشاطات يجب ان يرتفع عن مستوى السلعة ، السلعة التافهة التي تباع وتشترى فتتخطئ ثمناً وتسمو ؛ بقدر ما تقدم لاشترى من منافع .

والانسان : هذا المخلوق الراقى المهيأ للسيطرة على قوى الطبيعة وتسخيرها خيره يجب ان يتحرر من قيوده ، ويجب ان تتحرر ارادته ويتحرر جسده ، ولكن كيف يستطيع الاسلام ان يعالج مرضاً اجتماعياً مزمناً ينهش سمعة الانسان منذ آلاف الاجيال ؟ كيف يستطيع ان يهيء الجو لتحرير الرقيق واعادته انساناً سوياً له ما للاحرار من حقوق وعليه ما على الاحرار من واجبات ؟

لقد سلك الاسلام لتحقيق هذه الغاية وبلوغ ذلك الهدف طريق التطور الهادىء الفاعل لا طريق الطفرة الهادمة المنفجرة ، فهو لا يستطيع ان يلغي الرق لأول وهلة الغاء تاماً ، ولكنه يستطيع ان يرفع المستوى الاجتماعي للامة حتى اذا بلغت مرحلة من السمو النفسي ، انهار نظام الرق من تلقاء نفسه ، وتصدعت اركانه وقضي تماماً عليه .

اذن فأول حرية نادى بها الاسلام هي حرية الانسان الشخصية ؛ لقد اوصى بالرقيق خيراً وحرم استرقاق المؤمن ومنح الرقيق حق الحياة بعد ان كان يحق للسيد ان يقتل عبده متى شاء ، وجعل عقوبة قاتل العبد القتل لان المسلمين كما ورد في الحديث الشريف (تكافأ دماؤهم) (ومن قتل عبداً قتلناه) .

وشدد الاسلام على المساواة ، فقال عز وجل في كتابه الكريم : (انما المؤمنون اخوة) ؛ وأكد الرسول هذه المساواة فقال عليه الصلاة والسلام : (الخلق كلهم عيال الله) (والناس سواسية كأسنان المشط) (ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) الى آخر ما هنالك من آيات وأحاديث غايتها ان تركز في الذهن الانساني ان الناس من طينة واحدة ، وانهم جميعهم لآدم ، وان آدم من تراب ، وانهم لا يتفاضلون الا بالعمل وان الله لم يخلق عباده فئتين : فئة من العبيد ؛ وفئة من الاحرار وانما خلقهم جميعاً احراراً كما اعلن ذلك عمر بن الخطاب بكلمته المشهورة يوم قال : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟)

ثم منح الاسلام الرقيق الحصانة الجسدية فمنع ضرب العبد وتشويهه . ومنحه الحصانة العائلية فمنع السيد من التفريق بين العبد وزوجته .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل تعداه الى ابعد من هذا فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يشتري العبيد ليعتقهم وكان يساعد العبيد المملوكين لغيره على شراء انفسهم وذلك ليضرب للمسلمين مثلاً حسناً يحتذونه ويقتدون به وكان فوق ذلك يرغبهم بالعتق ويدكر لهم عظيم ثوابه ، فاذا مرض لاحدهم مريض او حل به بلاء او تطير من امر أمره بالعتق ، وكان يقول : (ايما رجل اعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار) ، وكان يقول ايضاً (ايما رجل كانت له جارية فأدبها فاحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها كان له اجران) .

ولم ينف الاسلام عند هذا الحد ؛ حد الترغيب في العتق ، وانما استوجبه في حالات معينة فهو كفارة عن القتل الخطأ وعن الظهار واليمين واوجب في موارد الزكاة سهماً مخصوصاً يرصد لتحرير العبيد .

وحاول الاسلام فوق ذلك ان يقوى الروح المعنوية عند الارقاء فنهى الرسول ﷺ عن مخاطبتهم (بعبد وأمة) واوصى بمعاملتهم معاملة كريمة ثم قال (ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه

عما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فاعينوهم) .

وقد اثرت وصايا الرسول وتعاليمه في اصحابه وفي جمهور المسلمين فكثير العتق واستقامت معاملة الرقيق ورأينا عمر بن الخطاب ، وهو من هو ، يتناوب ركوب البعير هو وغلامه حتى وصل بيت المقدس وكانت النوبة للغلام فدخلها خليفة المسلمين راجلاً ودخلها الغلام راكباً .

وأى مستشرق في الرق :

لا نحسب ان نظاماً اجتماعياً سبق الاسلام او جاء بعده الى ان الغي الرق رسمياً استطاع ان يحمي الرقيق وان ينتزع له حقوقه كإنسان وان يكفل له المساواة مع الاحرار الا الدين الاسلامي وانه ليرى لنا بهذه المناسبة ان نذكر هنا كلمة منصفة للمستشرق «سنوك» قال فيها (ان انتقال الارقاء الى ايدي المسلمين يعد من نعم الله عليهم ؛ والاوروبيون الذين يتصورون الارقاء في الاسلام كارقاء الزوج في اميركا مخطئون جداً ، فارقاء الاسلام يشبهون العمال الاوروبيين واكثرهم يستردون حريتهم بعد زمن قصير من دخولهم في ملك اسيادهم ؛ ولعل الجارية التي اصبحت زوجاً لمسلم واماً لاولاده ، والرقيق المتوحش الذي تهذب وتعلم ، وظهرت انسانيته في حجر الاسلام اكبر حجة على عدل المسلمين .) ثم استطرد المستشرق يقول : (ان الغاء الرق الذي امر به الانكليز عمل انساني لا شك فيه ولكنه لا يفيد اولئك الافريقيين الذين يعيشون في ادغالهم انكد عيش ويسامون اسوأ خطة ولو استرقهم المسلمون لنعاهوهم من جحيم لا يطاق الى دنيا يغمرها النور وتسودها الفضيلة) .

التحرير لم يتم فعلاً :

لقد مضى على ظهور الاسلام اكثر من ثلاثة عشر قرناً واتيح للانسانية خلال

هذا الزمن الطويل ان تتطور وتتدرج في معارج الرقي والحضارة وقدّر لها ان تحقق حلماً من احلامها بالغاء الرق وكان ذلك في اواخر القرن التاسع عشر حين اجتمع في برلين عام ١٨٨٥ عدد كبير من الدول وابرموا معاهدة تعهدت فيها الدول الموقعة عليها بمنع تجارة الرقيق في العالم ولكن نظام الرق الذي الغي رسمياً ؛ هذا النظام الجائر القذر ما زال مع الاسف قائماً. انه ما زال يعيش في عصرنا هذا عصر الذرة بوجهيه الخزيين: الرق الجسدي والرق المعنوي : ففي افريقيا السوداء ما زال الانسان يباع ويشترى ؛ وفي الامم الضعيفة المستضعفة ما فتىء الانسان عبداً للقوي يستغله ويحرمه حقوق الحياة وينتزع من بين يديه ثروة بلاده وخيرات ارضه ؛ فاذا ثار من اجل حريته او طالب بهذه الحرية سلط عليه القوي الغادر الحديد والنار وزبانية التخريب والدمار ، قصد اذلاله وخنق ارادته واستغلال جهده وعطاء بلاده .

حرية الفكر والعقيدة :

لم يكد الاسلام يطلق سراح الانسان ويحطم اغلاله التي ادمت يديه حتى انبرى يبيه حرياته كلها ويدافع ببسالة عن هذه الحريات كلها هددت . وثاني هذه الحريات التي كانت من عطاء الاسلام هي حرية الفكر والمعتقد .

فالاسلام لا يرفض طرق التفكير الخاصة بل يدعو الى احتكاك الآراء وسعة الاطلاع وتنوع الثقافات ، وهو يعتبر الفكر ارثاً انسانياً مشتركاً بين الامم وهذا ما جعل العرب يمتسكون دون ما تخرج من حضارات الامم السالفة والمعاصرة وثقافتها المتنوعة ما يجدونه صالحاً لبناء مجتمعاتهم الجديدة . واكبر شاهد على حرية الفكر في الاسلام تعدد المذاهب السياسية والفرق الدينية ومدارس الاجتهاد ؛ ومبدأ الشورى هذا المبدأ الذي امر به القرآن الكريم (وامرهم شورى بينهم) كان ركيزة قوية من ركائز الدولة الاسلامية ومظهراً من مظاهر ديموقراطيتها اذ كان للرأي الاصلح دائماً القدح المعلى والكلمة النافذة .

لا اكراه في الدين :

اما حرية المعتقد فقد صانها الاسلام الا ما كان منها منافيا لكرامة الانسان وكرامة العقل ؛ ومن اجل ذلك حارب الوثنية حربا لا هوادة فيها ولا لين حتى استطاع ان يهزمها ويقلص عن الجزيرة العربية ظلها لانها تعبير عن جهل الانسان والغاء لعقله . فاية قيمة لعقل يسجد امام صنم لا يملك نفعا ولا ضرا ؟ واية كرامة لانسان يهقر جبينه على اقدام وثن جامد تبول عليه الثعالب ولا تخشاه ؟ ومن اجل ذلك اتاح للنصرانية واليهودية ان تعيشا في ظل دستور الخالد (لا اكراه في الدين) هذا الشعار الذهبي الذي حمه محمد عليه السلام ودعا على اساسه اليهود والنصارى الى دينه فان قبائره دخلوا في الاسلام ، وان رفضوه لم يكرههم على شي ؛ وانما سألهم ان يعطوا الجزية وهي ثمن حماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم في الحروب . ولعل الرسول العربي الكريم خشي ان يشتط اتباعه فيما بعد وان تسول لهم انفسهم التضييق على معتنقي الاديان الاخرى فنهى اتباعه عن ايداء الذميين بقوله : (من آذى ذميا فقد آذاني) .

وتفرع عن حرية المعتقد حرية الممارسة للشعائر الدينية وقد كفل الاسلام هذه ايضا إذ اباح للنصارى ان يقيموا الكنائس ويظهروا الصلبان ويسيروا بها في المواكب .

وليس أدل من بعد الاسلام عن روح التعصب واعطائه الحرية الكاملة لجميع اصحاب الاديان الاخرى - من قول المستشرق - آدم ميتز : « وقد قلنا ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني مرتين في اثناء القرن الثالث » والمعلوم : ان القرن الثالث هو العصر الذهبي بالنسبة لانتصار الاسلام .

أفلا يعتبر تساهل المسلمين وافساح المجال لغيرهم كي يتهمس باعباء الحكم والادارة

الا يعتبر ذلك دليلاً على ان الاسلام لم يصنف الناس على اساس معتقداتهم وانما على اساس كفائاتهم .

لا هوادة مع المتآمريين :

غير ان موقف المسلمين يختلف بالنسبة لليهود لا لليهودية ؛ذلك لان اليهود ناووا الاسلام عند نشأته وتآمروا على الرسول وحاربوه في خيبر وتكاثروا ضد دعوته فكان من الطبيعي ان يقف المسادون منهم موقفاً معادياً رداً على موقفهم الذي تميز بحبك الدسائس والمحاولات الكثيرة للقضاء على الدعوة الجديدة وخنقها في مهدها .

ولعل من ابرز الامثلة على تسامح الاسلام الديني ذلك السلوك العملي الذي سلكه خلفاؤه وخاصة الخليفة الثاني الذي دخل بيت المقدس وزار كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة لم يجد مكاناً يؤدي الفريضة فيه الا الفسحة الواقعة امام مدخل الكنيسة ؛وعندما قيل له ما معناه لم لا تصلي داخل الكنيسة والله تعالى يقول : (ايما تولوا فثم وجه الله) اجاب : انه كان باستطاعته ان يصلي داخل الكنيسة ولكنه خشي ان فعل ان يأتي يوم يطالب فيه المسادون بالمكان الذي صلى فيه عمر .

هناك عابرة :

قد يقول قائل ان بعض العصور الاسلامية فرضت على غير المسلمين في بعض البلاد قيوداً تغل حرية المعتقد وتحد منها . وعلى هذا نجيب بأن الاسلام في صفاته بعيد كل البعد عن جميع ما يمس الحرية العقائدية واذا كانت بعض الظروف العابرة ومقتضيات السياسة الرعناء قد اعطت في بعض الاحيان الدليل الحي على ذلك فانه يجب ان لا يغرب عن البال ان الاسلام لا يعني ابداً المسلمين وان بعض التصرفات

الشخصية كانت وليدة اهواء ، الاسلام منها براء ، وانا لنذكر بكثير من الاسف ان الجهل والغرور او الدس الاجنبي او هذا كله مجتمعاً اثار شيئاً من الحق والريية في فترات من الزمن مختلفة بين المسيحيين ؛ فما ينبغي لنا ونحن نلمح الى هذه الحقيقة الا ان نلتمس فيها الموعظة والعبرة فان التاريخ بما يعرض علينا من ذكريات الشرور والمآسي لجدير بان يهذبنا كما تهذبنا المفاخر .

ولن ننسى ان 'نذكر في هذه المناسبة بموقف ملوك فرنسا في القرن السابع عشر من خصومهم الدينيين . ان مذابح (سانت بارتيلمي) بين الكاثوليك والبروتستانت لم يعرف في تاريخنا الطويل ما يشبهها هولاً . ولقد ذكر الاستاذ «رينو» ان فرنسا عام ١٦٨٥ اصدرت امراً بتحريم الديانة البروتستانتية وهدم كنائسها ونفي رؤسائها . وفي عام ١٧١٥ اعتبرت فرنسا كل زواج لا يعقد على الطريقة الكاثوليكية زواجا غير شرعي .

فهل يعني كل هذا ان تصرف الملوك والحكام يمكن ان يكون حجة على عدم تسامح المسيحية ؟ وهل يمكن ان نتهم الدين المسيحي على ضوء هذه الوقائع التاريخية ؟ . ان المنطق السليم يجيب بلاء فيه كلا والاف مرة كلا .

حرية الرأي والقول :

(قل الحق ولو على نفسك) ذلك ما نادى به محمد بن عبد الله ﷺ منذ اكثر من اربعة عشر قرناً ، وجاء اصحابه من بعده يطبقونه تطبيقاً نموذجياً رائعا ، حتى اصبحت حرية الرأي والقول مفخرة من مفاخر الدين الاسلامي ومبدأ اساسياً من المبادئ التي تركز عليها الدولة الاسلامية الصحيحة ، فهذا ابو بكر الصديق رضي الله عنه يبايع خليفة المسلمين بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، فيعتلي المنبر ويخطب الناس قائلاً (لقد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان

اسأت فقوموني ؛ اطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) .

ألا يعتبر هذا القول البليغ الرائع وهذا الاسلوب في التنبيه والتشجيع على النقد مدرسة حرية القول قل نظيرها في التاريخ .

موقف عمري :

وهذا ابن الخطاب يدعو الناس على طريقة سلفه الصديق الى معونته ان احسن والى تقويته ان اعوج فينهض أعرابي من بين الصفوف ويتصدى للخليفة قائلاً :
(والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا) فيشرح لذلك صدر عمر ويشكر الله الذي اوجد في رعيته من يستطيع تقويم اعوجاجه اذا اعوج .

موقف آخر :

وهذا ابن الخطاب ايضاً يرتقي المنبر ثانية ويخطب الناس قائلاً : (ايها الناس اسمعوا واطيعوا ، فيقف اعرابي جلف ليقول للخليفة الذي ارتعدت من رهبته فرائص كسرى وزلزلت من هيبتة تيجان القياصرة ، يقف ليقول له بكل تحد وجرأة : لا سمعاً ولا طاعة يا عمر ؛ ويبتسم الخليفة العظيم ، فان وراء جرأة الاعرابي تهمة بلا ريب ، فليمت الاعرابي اللثام عنها وليقلها بعراحة ، ويسأله عمر : ولمَ يا أخا العرب ؟

ويتهم الاعرابي خليفة المسلمين ، يتهمة باستغلال مركزه ونفوذه كخليفة . فلقد وزع على المجاهدين ما غنموه في احدى غزواتهم من حبرات يمانية احاب كل واحد منهم واحدة منها ، وقد حاول الاعرابي ان يجعل منها ثوباً له فلم تكفده ، وها هو

يرى الخليفة يرفل بثوب من تلك الحبرات والخليفة اطول منه واكثر بسطة في الجسم . . اذن من اين لك هذا ؟ وترجم العيون الغضبية الاعرابي الذي يتهم امير المؤمنين بشواظ من نار وتمدّ اللسان اعناقها تشتهي ان تنهشه ، ولكن الخليفة العظيم يبتسم ثانية ويسري عنه ويلتفت الى ابنه عبد الله قائلاً : (أجبه يا عبد الله) . ويقف ابن الخليفة ليشرح للاعرابي المتهم كيف تنازل عن حبرته لوالده وكيف صنع الوالد من الحبرتين معا ثوبا له . ويقتنع الاعرابي ويبدد البرهان شكوكه فيحني رأسه مدعنا ويقول : الآن سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين .

موقف ثالث :

وهذا ابن الخطاب الثالثة يسأل سلمان : أملك انا ام خليفة ؟ فلا يرهب سلمان أمير المؤمنين ولا يماريه ولا يصانعه بل يقول له بصراحة ما بعدها صراحة : (ان انت جيتت من ارض المسلمين درهما او اقل او أكثر ثم وضعت في غير حقه ، فانت ملك لا خليفة) .

الني وسحرية الراي :

وهذا رسول الله يسير الى احدى غزواته فينزل بجيشه في موقع غير لائق من الناحية الاستراتيجية فيسأله عمر بما معناه : أبوحى نزل في هذا المكان ام باجتهاد؟ فيجيبه الرسول عليه السلام انه انما اختار هذا المكان بناء على اجتهاد شخصي لا دخل فيه للنوحى ، فيعترض الصحابي الجريء على هذا الاختيار وينصح بالعدول عنه ، فيمثل رسول الله ويبدل المكان .

وهكذا نرى ان حرية الرأي هي احدث الثمرات التي انتجها الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ . واننا لا نعرف حركة عقائدية كانت او سياسية في التاريخ

التقديم أو الحديث اعطت حرية الرأي مثل تلك المكانة التي أحلها فيها الاسلام .
ولقد كان من نتيجة هذه الحرية ، ان تقدمت العلوم وازدهرت المدنية وسمحت
غروب الدولة الاسلامية وامتدت ظلالها ، وقدر لهواهب ان تتفتح في ظل هذه
الدولة وان تعطي عطاءها السمع الخير .

الحرية المقيّدة :

ولكن الاسلام لم يذهب بطبيعة الحال في موقفه من حرية الرأي مذهباً ايجابياً الى
ابعد حدود الايجابية بحيث يبيح للرأي الصالح الفاسد المفسد ان ينتشر وان يتسلل
الى افهام الناس واذهان العامة ، فذلك ما لا يتلاءم وفلسفة الحكم وبالتالي لا يتلاءم مع
المصلحة العامة ، هذه المصلحة التي ترى بعض المذاهب الاجتماعية الحديثة ان
يفضح في سبيلها بكثير من الآراء .

لقد كان الاسلام يدرك تمام الادراك ان المجتمع الاسلامي ككل مجتمع ، لن
يخلو من فئة مضالة لاهم لها الا تدمير كل بناء اجتماعي والكيد لكل حركة
تصاعدية . فاعتبر هذه الفئة من اصحاب الفتنة وراكد ان الفتنة اشد من القتل ،
واوجب على السلطة الحاكمة ان تتدخل حين يشيع الرأي الذي يوقظ الفتنة لتتلافى
بذلك كل هزة اجتماعية محتملة . ولا نحسب منصفاً حين يتصفح التاريخ الاسلامي
واحداثه وما اثر افدائه ، يجرو على اتهام الاسلام بمصادرة الرأي اذا ما وقف على
بعض الحوادث التي تظهر لاول وهلة انها من قبيل الكبت بل وان شئت فقل القمع
لهذه الحرية المقدسة .

حرية الآخرين :

ان الاسلام يعتبر ان حرية الفرد تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين وهذه القاعدة

التي تمشى عليها واتخذها مرتكزاً للحريات العامة هي نفسها اليوم وفي ارقى المجتمعات الحديثة واشدها تعلقاً بالحريات وتغنياً بها ، القاعدة التي ترتكز عليها هذه الحريات . فها توالى بالله عليكم بلداً في عصر الذرة لا يتمتعن حرية من يعمل لتحطيم حريات الآخرين ؟ ولا يكبت رأياً يهدد المصالح العامة رئيسي الى هذه المصالح ؟ ان اميركا وهي زعيمة الدول الديموقراطية كما تزعم في عصرنا الحديث ما زالت حتى اليوم تتمتعن معتنقي الشيوعية مثلاً وتلاحقهم جزائياً وتنزل بهم العقوبات الجسدية من اجل آرائهم العقائدية مع ان مجموعة كبرى من الامم اعتنقت هذا المذهب الاجتماعي وطبقته في بلادها . فهل يؤخذ على المجتمعات الاسلامية خلال تطورها التاريخي انها قمعت بعض الاراء المدمرة حقاً في سبيل السلامة العامة ؟ وهل يجوز ان نعتبر هذا القمع خرقاً لحرية الرأي التي كفلها الاسلام ؟

حرية المرأة :

اما حرية المرأة فقد كفلها الاسلام حين ساواها بالرجل في النفس والجاه والكرامة ، ورفع عنها تلكم الآصار ، وحررها من قيود الذل والاستكانة والهوان . ونزل قول الله تعالى (يا ايها الذين امنوا لا يحل لکم ان ترثوا النساء كرهها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

حقق الاسلام للمرأة كافة حقوقها وكامل انسانيتها وحررها من كل قيد منذ اكثر من اربعة عشر قرناً . فبينما نتلو قول الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب) وبينما نردد حديث رسول الله ﷺ (سوا بين اولادكم في العطية ولو كنت مفضلاً احداً لفضلت النساء على الرجال) اقول بينما كنا نتلو ونردد مثل هذه الاحاديث وتلكم الآيات نجد المرأة في بريطانيا ، ارقى دول العالم ، قد بقيت حتى القرن التاسع عشر لا يؤذن لها ان تمشي في شوارع لندن

بغير حارس ولا يؤذن لها ان تتنقل الا في عربة مقفلة ولا يؤذن لها ان تسافر الا برفقة رجل امين . بل لقد ظلت بريطانيا لمئة سنة خلت تبيح بيع الزوجات وانه في سنة ١٨٥٠ كان ثمن الزوجة نقداً ستة بنسات اي ما يساوي حين ذاك اربعة فرنكات .

كفل الاسلام للمرأة حرية التصرف وابعاح لها ان تملك العقار والمنقول ، وان تهب وتشتري وتبيع ، وان توصي وتقاضي كما تريد ؛ على حين ان الدول الكبرى صاحبات الدعوة الى حرية الشعوب لم تتوصل الى ما توصل اليه الاسلام فيما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا في مستهل القرن العشرين . اعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التي اعطاها للرجل مدنية كانت او سياسية ، فلها حق العمل بمزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ولها حق الانتخاب والتمثيل النيابي البلدي والاداري وان تتولى مناصب القضاء .

وفي صدر الاسلام بايعت النساء محمداً عليه الصلاة والسلام وبايعه الخلفاء من بعده والبيعة ابلغ من الانتخاب . وفي عصر الايوبيين تبوأ « شجرة الدر » عرش مصر وكانت ام المقتدر رئيسة لمحكمة الاستئناف ببغداد .

وعلى الجملة ليس من امة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المرأة وحررت المرأة مثل الامة العربية ، وفي هذا يقول فون كرايمر (ان العرب كانوا مفطورين على احترام النساء ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم) .

حرية العمل :

ان من الحريات العامة التي كفلها الاسلام ايضاً حرية العمل فهذه الحرية مطلقة مبدئياً الا ما خالف منها الشريعة الاسلامية فان الاسلام يحظرها بوصفه ديناً سماوياً ونظماً اجتماعياً وفكرة سياسية في آن واحد ، وهو حين يحظرها انما يخص بهذا الحظر المسلمين ولا يفرضه على غيرهم من رعايا الدولة .

فالغير المسلم ان يتاجر بالخمر وان يصنعها ولكن ذلك لا يجوز للمسلم لان دينه حرّم الخمر وحرّم بيعها كنتيجة مباشرة لتحريم تعاطيها . ولغير المسلم ان يقتني الخنزير ويربّه ويبيعه ويشتره ، وان يتعاطى الميسر والربا ولكن ذلك لا يجوز للمسلم لان قانونه الديني حرّمه بقوله سبحانه (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وقوله ايضاً (واحلّ الله البيع وحرّم الربا .)

ومن الاعمال ما كرهه الاسلام باعتباره آلة المعصية اي انه يفضي اليها كصنع الآت الملامية واستئجار المغنيات وهذه الكراهة ليست تحريرية وانما هي من قبيل الوقاية والحماية الاجتماعية .

ويجب ان لا ننسى نقطة هامة جداً ما دمنا في صدد الحديث عن حرية العمل فلقد كانت بعض الصناعات والحرف والاعمال مشينة في نظر العرب الجاهليين فجاء الاسلام يمجّد العمل ويبارك العامل وقد روي عن الرسول ﷺ انه مر بشيخ تشققت من العمل فاخذ يده فقبلها ثم قال (هذه يد يحبها الله ورسوله) .

ولقد ضرب الرسول عليه السلام مثلاً اعلی في الدعوة الى العمل واحترام الحرف حين قال : (الحرفة امان من الفقر) وحين طبق ذلك عملياً بأن كان هو بنفسه يرتق ثوبه ويحلب شاته ويخصف نعله .

وكانت حرية الإقامة والانتقال مباحة ايضاً عملاً بمبدأ الحرية العامة فلمواطن في الدولة الاسلامية ان يقيم انى شاء وان ينتقل حيث ما شاء دونما تقييد او تضيق . وهذه الاباحة مطلقة لجميع المواطنين مسلمين كانوا أو غير مسلمين وذلك في زمن السلم ، ولكن الامر يختلف بعض الشيء في زمن الحرب وهذا امر طبيعي لا يمكن ان يعتبر مأخذاً او تقييداً للحرية .

اما التجمعات الطائفية ان صحت التسمية فلم يكن نظام الدولة يقتضيها ولا الدين يتطلبها ، انما التشكل الاجتماعي وطبيعة المجتمعات هي التي اقتضتها وتطلبتها

إذا لم يكن المساهمون يفرضون على غيرهم من مواطني الدولة الإسلامية ان يقيموا في بقعة معينة او ان يحتشدوا في ناحية معينة ، بل كانوا يتركون لهم حرية الإقامة والتنقل يقيمون بصورة عفوية حيث تنتظم احوالهم المعيشية ، وينتقلون بصورة عفوية حينما تقتضي ظروف حياتهم .

حرياتنا في الميزان :

انه ليتمكن القول بأن الحريات العامة في عصرنا وفي ظل النظم الحديثة ليست اسعد حظاً منها في ظل الدولة الإسلامية رغم مرور اكثر من اربعة عشر قرناً على نشؤ تلك الدولة ، ورغم التطور الاجتماعي الذي طرأ على الانسان الحديث وانظمة الحكم

فما زلنا نرى كل يوم من مآسي الحرية في عصر الاشعاع الذري الذي ما يندى له جبين الانسانية . فهناك اقطار سلبت حرياتها وحرمت حق الحياة حتى اذا ارادها الوعي ان تنتفض لتستعيد حرياتها المسلوبة وحققها المغتصب ، اغرقها الطغاة باسم الحرية دماً وحديداً وناراً . وهناك فئات لم تمنحها ديموقراطية القرن العشرين سوى لون واحد من ألوان الحرية هو حرية الموت جوعاً فتموت دون ان تثير اهتمام حاكم او عناية سلطة .

وهناك فئات ما زال يحني عليها لونها ؛ انها ضحية للون عجيب من ألوان العبوديات ما فتى يعيش في ظل المدنية الحاضرة هو عبودية اللون . اليس عاراً على الانسانية ان يُستعبد انسان من اجل لونه ؟ وأنى للانسانية صوت كصوت ابن الخطاب يرتفع مجلجلاً (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً) ؟ ليحطم كل قيد وليكسر كل نير ؟ وأنى لحرياتها ذلك الجو الرائع والمناخ الملائم الذي هبأه الاسلام ؟ ألا من يعيد الانسانية الى صوابها ؟ من يفتّح عينيها على

الاسلام ومحاسن الاسلام وديموقراطية الاسلام ؛ وعلى بذور الخير الكامنة في
تعاليمه ؟ هذه البذور التي تحتاج الى عقل بصير يكتشفها ويد خيرة تنثرها ؟ وأنى
للحريات العامة نظام آلهي يحميها كالاسلام ؟

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وهو يدعى الى الاسلام ؟
والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله
بأفواههم ، والله متم نوره ، واو كره الكافرون . »

المجتمع المثالي

● يؤكد الاسلام بان الناس سواسية ، ولا يتفاضلون الا بالعمل الصالح والخلق القويم ، وهكذا نراه يظهر الانسانية من غرور النسب وصفة اللون .

● ان الاسلام كثر من ينقض واحداً من الانبياء الذين سبقوا محمداً ونزّه تاريخهم عن الكذب ؛ وضرب بعزمهم وصبرهم الامثال مؤكداً انهم كانوا مشاعل هداية للعالمين .

● استطاع الاسلام الفروق الدينية في القضاء ، فلا فوق بين مسلم وغير مسلم امام العدالة . وقد برهن النبي والخلفاء الراشدون بأعمالهم على ذلك .

معرفة بين النظريات :

ما زال الانسان منذ بدأ يرقى سلم المدنية ، قائماً وراء أملة المنشود ، وبغيته الضائعة ، ساعياً من اجل هدفه الاسمي ، ورسالته العليا ، الا وهي « المجتمع الفاضل » وفي سبيل هذه الغاية ، راج العقل الانساني يتكرر في كل يوم نظرية ، ويرى في كل يوم رأياً ، ويحاول في كل مناسبة محاولة ، وينهج في كل ظرف نهجاً .

وتشابهت النظريات والاراء ، وتباينت الحلول والمناهج ، واتخذ بعضها الصفة السياسية ، وحمل بعضها راية العقل ، وتوسل بعضها الاخر بالتجارب والعمليات التطبيقية ، وها نحن في القرن العشرين نعيش على فوهة بركان خامد ، لا نعرف مدى ثورته ؟ ولا ندري لحظة انفجاره . ها هي الانسانية اليوم ، وقد تفرقت شيعاً واحزاباً ، ونظريات وانظمة ، يحاول كل منها ان يكسب التأييد ونيل الغلبة ، بتوفير اكبر قسط من العدالة ، ويسعى كل منها من اجل اخضاع الاكثرية البشرية لمبادئه واسسه ، وكل نظام يحاول ان يغري انصاره بزعمه حماية العدالة ، وحرصه على الحرية ، وحراسته للقيم السامية . وكل نظام يحاول ان يظهر للملاء بمظهر البطولة والترفع والاخلاص للانسان ، وسعادة الانسان وأمنه وسلامه .

ولكن .. ما هي حصيلة هذه المعركة بين النظريات ، وما هي نتيجة هذا التسابق بين المبادئ في كسب وُد البشرية واكتساب رضائها ؟! ..

السعادة ضالة البشر :

مما لا شك فيه أن اختلاف الانسان في تطبيق مفهوم العدالة ، وتباين آرائه حول مبادئها ، جعل العدالة نفسها في خطر .. وهذا الاستنتاج امر بداهي تماما . لان الغاية من تطبيق العدالة هي الوصول ' « الى السعادة » والحصول ' على الامن ، والتمتع ' بالراحة والرخاء .. للاحياء جميعاً .. وهذه الغاية لن توصلنا اليها الحروب ولن تضعها بين ايدينا الدماء التي تريقها الشعوب .

وسبيل الانسانية الى السعادة والسلام ، سبيل لا يمكن سلوكه بالطائرات ، ولا يمكن تمهيده بالقنابل ، والطريق الى الامن الانساني العام طريق لسنافيه بحاجة الى محالفات عسكرية ، ولا الى اتفاقات دولية ، لُحمتها المصالح الرخيصة ، وسداها التجارة بمصائر الناس .

اجل ان السعادة ليست مطلباً عسيراً ، يستحيل على الانسان امتلاكه والحصول عليه ، وليست هدفاً خيالياً يحلم به المصلحون الاجتماعيون ، ويتوقعون حدوثه في العالم الآخر .

وليس معنى هذه الحروب التي استعرت نارها بالامس ، بين النازية والرأسمالية ، والتي يدوم خطرهما اليوم ، بين الشيوعية والرأسمالية ، ليست هذه الحروب دليلاً على ان الأمن بين الانسان واخيه ، والسعادة بين البشر ، اخبار علمية وافكار تدور في الرؤوس ، وتفكر بها العقول وتدور بذكرها الألسن ... ولكنها لا توجد ؟

لا .. فما اشدّ خطأ من يدعي ذلك لان حالة التوتر القائمة دائماً وابدأً بين النظريات الانسانية التي تزعم انها تعمل من اجل اسعاد البشر واشاعة السلام بينهم .. حالة التوتر هذه دليل صريح لا ينقض على ان النظريات الانسانية كلها نظريات فاشلة .

ودليل على ان العاملين من اجلها انانيون مخطئون ، وان الانسان في كافة مراحل لا يستغني عن السماء ووحى السماء . وان رسالة الاديان لم تفقد جوهرها الروحي بعد ، ولم تنازل عن رفعة مقاصدها ، وترفع اهدافها ، وان الناس فيها اوتوا من العلم ، ومهما حازوا من درجات التقدم ومهما نالوا من اطوار الازدهار .. فانهم دائماً وابدأً عباد الله ، بحاجة لشرع الله . ذلك الشرع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي لا شفاء للانسان الا به ، ولا سعادة الا باقباعه ...

والله تعالى اعلم منا بانفسنا ، واحرص على سعادتنا منا ، ونظامه للعدالة نظام إلهي ليس فيه طمع ولا جشع ، ولا كبرياء ، ولا تسلط ، وهو الغاية التي ما بعدها غاية .. والامل الذي ليس من بعده أمل .

عمل الاسلام من اجل العدالة

الاسلام كدين سماوي ، وشرع الهى ، ضرب بسهم وافر فى تنظيم العدالة ، وارساء قواعدها بين الناس ، ونال حظاً عظيماً فى رسم القواعد الاولى لاسعادهم ، وتوفير الامن والطمأنينة لهم ، وفتح فتوحاً جديدة فى محاربة الآفات التى كانت تأكل كل جهود المصلحين الاجتماعية كما تأكل النار الحطب ...
فماذا فعل الاسلام ؟ وكيف حقق العدالة فى بناء المجتمع ؟

معنى العدالة فى رمضان

هذا ما سنحاول كشف النقاب عنه ، للمسلمين خاصة وللمواطنين عامة ، وأول مثل له هو شهر رمضان المبارك الميمون ، الذى انزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان . ذلك بان رمضان وحده بما يتخلله ويحف به من المعاني الانسانية الرفيعة ، هو صورة رائعة من سمو العدالة الاسلامية بل هو من اقوى ضروب الرياضة ، التى يقود الاسلام بها ازمة النفوس ، الى تحقيق حياة اجتماعية مثلى ، تقوم على اكرام مبادئ العدل والمساواة .

فاذا جاع الفتيير وشبع الغنى فى كل أيام السنة ، وأدى ذلك الى شعور الاول بمرارة الظلم ، وزهو الثانى ببطر النعمة ، - جاء رمضان فنشر لواء الجوع على الغنى والفقير ، بدرجة واحدة ، فأحدث للعدالة طعماً جديراً بأن يشد النفوس اليها ، ويديم ارتباطهم بها ، لأن فى المساواة امام الجوع تعزيةً لنفس الفقير بأن الغنى قد اصبح نظيراً له ، وتربيةً لنفس الغنى بان الفقير نده وقرينه .

وكذلك يحمل وجه العدالة الاسلامية حين يرسل المؤذن صيحته الخالدة مع غروب الشمس ، فتحمل الاذن بالطعام للفقير والغنى على السواء ، فاذا المساواة طابع رمضان ، يشعر المسلمين بها فى الحرمان فيمضي اليوم والناس جميعاً

ممسكون ، ويروضهم على الاعتصام بها في العطاء ، فلا تغرب الشمس الا والجميع مفطرون .

ولا مراء في ان الاسلام يهدف بفريضة الصيام الى تأصيل فضيلة العدل ، سواء بهذه الوحدة بين كافة الطبقات في مظاهر الحياه ، او بما يثير في نفوس ذوي اليسار من الشعور بآلام المعسرین ومد اليد اليهم ، بالمشاركة في مال الله الذي آتاهم اياه .

لقد ضاعف الله اجر الصدقات في رمضان ،

وتسابق الصحابة الكرام الى البذل والعطاء في رمضان ،

وكان رسول الله ﷺ في جوده كالريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون في رمضان . ثم في نهاية الشهر تجب زكاة الفطر فلا يقبل الصيام الا باداؤها إتماماً لحق رمضان . فاین تذهب حصيلة هذه التوجيهات كلها ؟ وهي كثيرة لا يحيط بها الاحصاء ، وای اثر تحدثه هذه العطايا جميعاً في مجتمع يتفاوت اهله في الغنى واليسار ؟

الاترون — قرائي الاعزاء — ان مجتمعا تنحدر فيه هذه الاموال من فم الثروات الى سفوح الاقلال جدير بان يجد فيها خير اداة لاحداث التوازن ، وتقريب مسافة الفرق بين كافة الطبقات ؟

ثم الاتوافقون معي على ان رمضان بهذا الاعتبار حري ان يعتبر معرضاً سنوياً لفضائل الاسلام ، وفي مقدمتها فضيلة العدل والمساواة بين عامة الناس ؟

دعائم المجتمع المثالي :

يقوم المجتمع في نظر الاسلام على دعائم عدة من خلق وحكم ووحدة وامل وتكافل ، ولكل منها اثره الكبير في تسديد خطى الجماعة الانسانية نحو الرقي والكمال .

وما من شك ان العدالة والمساواة دعامتان اساسيتان وضرورتان لبناء مجتمع صالح ، وتأمين استقراره وطمأنينته .

والاسلام حين يحدد دورهما في بناء المجتمع ، ويشدد عليهما كعاملين يضمنان كيانه ويؤمّنّان قواعده ، إنما يسيّرهما في اتجاهين مختلفين : سلب وإيجاب ، ويعهد اليهما بعمليتين : هدم وبناء ، وذلك لان توجيهات الاسلام الانشائية بمثابة بذور النبات الزكي لا بد لكفالة نموه من تطهير التربة من الطفيليات ، ضماناً لطهارة الفطرة الترابية ، التي تحضن الغرس الطيب ، وتنمّيه ، ليعطي ثمره الحلوى النافع .

تطهير داخلي :

من اجل ذلك ، يعتمد العدل الاسلامي ، الى شق طريقه ، بتطهير وعاء النفس الانسانية من كل ما يشعرها بالصلف حيناً ، وبالصغار حيناً آخر ، حتى يردها الى أصالة طهرها . فلا يغريها الاقبال ، بالجشع والكبرياء ، ولا يشدها الحرمان والعوز الى استمرار الضعة والهوان . وكلها بلغ الغاية من هذا التطهير في جانب ، أسرع الى ابداء عناصر العدل الايجابية ، فمد بذلك لقيام بناء المجتمع الراشد على ارض خلت تربتها من الطفيليات وبذور الطفيليات .

والعل أول ما يستهل به العدل الاسلامي عمله ، في بناء المجتمع الصالح ، هو

انه يقيم الموازين القسط بين ابناء آدم جميعاً ، ويعلم ان النفس الانسانية من اصل واحد :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء » .

فيحرر المجتمع بذلك من الإحتكام الخاطيء الى المعايير المصطنعة ، في النظر الى فئات الخلق ، والحكم على اقدار الناس .

قلنا ان الاسلام يشدد الحملة على بذور الكبرياء والضعفة — وهو الجانب السليم من عملية البناء — ليهيء النفس الانسانية لمنهج الاعتدال الكريم ، الذي لا يبطره زيف الدنيا ويهرجها ، ولا تحني هامته حوادث الايام : « قال تعالى في كتابه العزيز :

« اليس في جهنم مثوى للمتكبرين » وفي موضع آخر : « قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه » .

فهل يسمع امرؤاً يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ان يسد اذنيه ، فلا يصغي الى هذه النذر ، وان يسمح لها فتزين له الزهو على الخلق او تستدرجه الى ادعاء التميز على سائر الناس ؟

بل ألا ترون — قرائي الاعزاء — ان من شأن هذه النذر ان تحدث رد فعل طبيعي فتكاد تهبط بالنفس الانسانية مباشرة من التعالي والاستكبار ، الى القناعة بالدون والصغار ، لولا ان في هذا العلاج اسباب المناعة من الانتكاس حين يقول تعالى :

« والله العزة للرسله وللمؤمنين » وفي قوله ايضا : « أيبغون عندهم العزة : فان العزة لله جميعاً »

وحين يقول رسوله عليه السلام : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف واليد العليا خير من اليد السفلى » وتبلغ الحصانة أوجها بهذا الحديث الشريف « من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس مني » .

اسس البناء الثلاثة

بمثل هذه الحملات العنيفة على نوازع التمييز بين الانسان ، يقتلع الاسلام من النفس الانسانية الطفيليات ، ويهيئها لتقبل بذور التوجيه الايجابي البناء ، الذي يمكن ان نجعلها في ثلاث نقاط :

اولاها : وحدة المنشأ :

لقد قرر الاسلام ان الناس جميعا متساوون في قيمة الفطرة التي نشأوا منها والتي مردهم اليها ، وهي الفطرة الترابية التي لا تسمح لعقل ان يتخذها مادة للشموخ بانفه ، او العلو بقدره ، « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى »

« والناس لآدم ، وآدم من تراب »

وثانيها - وحدة القيمة :

فالاسلام حين يضع الاصل البشري بصورة ينتفي معها الغرور ، وفي وضع لا يمكن معه اتخاذ مادة للزهو والخيلاء والاستعلاء ، يقرر كذلك الاتفاضل بين الناس بهذا الاصل بل التفاضل بينهم يقوم على اساس آخر .

ان الناس كما أكد الاسلام سواسية كاسنان المشط ولكنهم يتفاضلون بالعمل الصالح والالحق التويم : « لا فضل لعربي على اعجمي ... الا بالتقوى » . « والخلق

كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله». «ومن اطاعني دخل الجنة ولو كان عبدا حبشيا ، ومن عصاني دخل النار ولو كان شريفا قرشيا .

ألم يعتمد الاسلام في تعاليمه هذه الى توجيه النفس الانسانية نحو الخير، وانتزاع ما يشوبها من غرور النسب وضعة اللون ! ليحقق المساواة في القيمة بين الناس جميعاً عند نقطة انطلاقهم في خدمة مجتمعهم ، ثم لا يعترف بشيء من التمايز فيما بينهم بنسبة ما يقدم احدهم لمجتمعه وبني دينه ووطنه .

وحدة المصير :

اما النقطة الثالثة التي اراد الاسلام ان يهييء بها النفس الانسانية لتقبل فكرة العدل والمساواة فهي وحدة المصير :

ان الناس حين يشعرون بانهم صائرون الى نهاية واحدة . ومنتھون منها طال بقاءهم على الارض الى مصير واحد ، يزعون الى حب العدل والمساواة والى التدخل بكل ما هو كريم وتسامح .

واي شيء يغري الانسان بالتطاول على الخلق ، ونذير الموت يقرع سمعه :
« كل شيء هالك الا وجهه .. له الحكم واليه ترجعون » .

وكيف يتطاول المرء على اخيه ، وهو يشعر ان الموت مصير كل حي ، وان حفرة القبر الموحشة مثنوى لكل انسان، وان القوي والضعيف، والمغرور والمسكين ، والظالم والمظلوم ، كلهم في القريب على مائدة البلى ، بل في ضيافة الدود والتراب ؟

أمام كل ذلك . تنهزم عوامل الاستعلاء والاستخذاء جميعاً في نفس الانسان ويقوى فيها الميل الى القصد والتزام الصراط المستقيم .

« وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه : ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . »

وينطلق الاسلام بعد ذلك ، لينفث روح المساواة والعدالة في مظاهر ثلاثة من مظاهر الحياة العامة .

في العقائد ، وفي العبادات ، وفي المعاملات ،

فالاسلام ، يدعو الى احترام الاديان السماوية عامة ،

« قولوا آمنا بالله وما أنزل اليينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

ثم ينهى عن مضايقة غير المسلم في عقيدته وعبادته وماله ،

ويعلن حرية المعتقد : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ،

ويؤكد اخوة الاديان جميعها ، فيقول تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .. ويعلن انها من مصدر واحد « إنا أوحينا اليك ، كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

اما في العبادات ، فقد حرص الاسلام على ان يساوي بين معابد الاديان جميعاً في الحرمة الواجبة لها ، والقاضية بصيانتها وعدم المساس بها .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . »

ولم يكتف باقرار المبدأ بل انه نهى عن التعرض للرهبان في صوامعهم ، وطبق الخلفاء الاولون هذه التعاليم تطبيقاً رائعاً ، اذ ان القراء يذكرون ما جاء في وصية ابي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لقواده وكيف نهاهم عن التعرض للصوامع ، ونساكها :

« وستجدون اقواما ترهبوا في صوامعهم فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

صور فذة من تطبيق مبدأ المساواة :

ولم يقف احترام الاسلام للعبادات عند هذا الحد ، بل أن السلوك الاسلامي يحظر استخدام معابد الذميين لصلاة المسلمين حتى لا يدعى المسلمون حقاً عليها مع مرور الزمن . والتاريخ ما زال يذكر باكبار ، يوم دخل الخليفة العادل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وحان وقت الصلاة وهو يزور كنيسة القيامة ، وأراد ان يؤدي الفريضة ، فسارع الى الخروج من الكنيسة ، ليصلي عند عتبتها . ويُسأل الخليفة عن سر هذا التصرف رغم ان الاسلام يعتبر المعابد جميعاً من بيوت الله ، ورغم ان التعاليم الاسلامية تبيح للمسلم ان يصلي أنى شاء ، فيجيب الخليفة العظيم بانه لم يفعل ذلك الا لانه لا يريد ان يأتي يوم يستولي فيه المسلمون على الكنيسة بحجة ان ابن الخطاب صلى فيها !

أما في المعاملات فان الاسلام وقف من الذميين والمعاهدين موقفاً نبيلاً ، لا قلحقه فيه احدث النظم العصرية التي تتشدد بالحرية والمساواة .

فلقد حث على احترامهم واكرامهم واحسان معاملتهم ، واستهدف حمايتهم وحماية اموالهم ، واتخذ دين الذمي اساساً لرعاية ماله ، ولو كان هذا المال من المحرمات في نظر الاسلام ذاته .

والدليل على ذلك انه مع تحريمه الخمر والخنزير ، وتحذيره المسلم من الخمر او

صنعها او بيعها ، ومع انه حرم عليه اكل لحم الخنزير او تربيته ، او الاتجار به لان الخمر والخنزير في نظر الاسلام مال غير متقوم مع كل ذلك فقد اوجب الاسلام حماية هذا المال غير المتقوم اذا تعلق الامر بدمي .

فلو اتلف احد المسلمين خمرأ او خنزيراً لمسلم فلا عقاب عليه ولا تعويض ، لان الخمر والخنزير كما قدمنا مال غير متقوم بالنسبة للمسلم ، اما اذا اتلف مسلم خمر ذمي او خنزيراً يملكه ، فان الاسلام يفرض عليه العقاب والتعويض لانه في دين الذمي مال متقوم يجوز التعامل فيه عند اهل الكتاب .

واوجب الاسلام على دولته ان تحسن صحبة الكتابيين من الطوائف التي لا تدين بالاسلام فقال تعالى في كتابه الكريم :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤوهم وتقسطوا اليهم » وما اكثر الشواهد في التاريخ الاسلامي على نبل المعاملة التي يلقاها الذميون من المسلمين ، وكيف كانوا يعملون على توفير الطمأنينة لهم من حيث الحماية المالية والحرية العقائدية .

رب قائل يقول : ان في الاسلام نزعة استعلاء على بقية الاديان ، وميلا الى الظهور عليها بدليل انه استهدف جمع الناس على رسالته ، وانه اورد في مواضع كثيرة من القرآن ، ما يفيد بان الله فضله واظهره على الاديان جميعا مثل قوله تعالى :

« ليظهره على الدين كله » وقوله : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون » .

نظرة الاسلام الى الاديان :

ولرفع الشبهة التي تسبق الى بعض الازهان من هذه الآيات الكريمة نقول :

ان الاسلام نادى بوحدة الاديان السماوية جميعاً ، فهي في نظرد متحدة المنابع ،
موحدة المصدر ، وقد اعطينا الدليل ، فيما مر ، على ذلك .

ولكن الاسلام ، من ناحية ثانية ، يعتبر الاديان التي سبقتها مراحل هداية ،
وهو اذ يعتبرها كذلك لا يقلل من شأنها واهميتها ، وضرورة احترامها ، بل انه
يصر على وجوب احترامها واعتبارها وإيابه شيئاً واحداً . وانما كانت الاديان التي
سبقت الاسلام متوافقة مع حاجات البشرية في عصورها السالفة حتى اذا تم نضج
البشرية وتبلورت حاجاتها جاء الاسلام اكثر شمولاً وأوفى بمطالب الانسانية التي
طرأت عليها بعد رسالات الانبياء السابقين صلوات الله عليهم اجمعين .

وليس أدلّ على حقيقة نظرة الاسلام للاديان الاخرى من مدحه للموسوية
الصحيحة بقوله : « وامت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » .

ومدحه للمسيحية الربانية بقوله : « اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك
اليّ ومطهرّك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى
يوم القيامة » .

ولا نعتقد ان كتاباً دافع عن عصمة مريم كما دافع القرآن الكريم ، واننا لنحيل من
يشك في هذا القول على سورة مريم ، ليرى كيف نظر الاسلام الى المسيحية نظرة
تنزيه وتقديس .

الاسلام والانبياء :

اما بالنسبة للانبياء الآخرين الذين سبقوا محمداً ﷺ ، فالدين الاسلامي كرمهم اعظم
تكريم ، فكفر من ينقض واحداً منهم مهما احب محمداً ، ونزّه تاريخهم عن الكذب
وضرب بعزمهم وصبرهم الأمثال ، وأكد انهم كانوا مراحل هداية للعالمين :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن

تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

يستنتج مما تقدم ان جمع الناس على الاسلام هو جمع على هدى السماء ، متضمناً روح الاديان السابقة ، وان ظهوره على الدين كله هو ، ظهور الكتب السماوية جميعاً بظهور مرحلة الحتم على مراحل البداية ، والدليل على ذلك ان القرآن حين يؤكد ظهور الاسلام يقول .. ولو كره الكافرون... ولو كره المشركون... ولم يقل ولو كره اليهود او المسيحيون .

قواعد العدالة الاجتماعية :

لقد عمل الاسلام من اجل عدالة اجتماعية ، ترسيخاً لفكرة العدالة كمبدأ ، وتنمية لها كسلوك ، لذلك سعى الاسلام الى تحقيق العدالة الاجتماعية بوسائل شتى اهمها :

١ - اعلان الاخوة بين ابناء المجتمع الاسلامي :

(ا) « انما المؤمنون اخوة ، فاصلحوا بين اخويكم . »

(ب) لا يؤمن احدكم حتى يحب لنفسه .

٢ - تشديد التكبر على كل عمل يوهن الاخوة الاسلامية :

ومن اجل ذلك حرم التعالي والسخرية بقوله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهم) .

وحرم التعريض بالعيوب والتفاخر بالاحساب « ولا تلهزوا انفسكم ، ولا تنابزوا باللقاب »

وحرم الغيبة والنميمة وسوء الظن : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أوجب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه »

٣ - الترغيب في كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة :

كالدعوة الى الاصلاح بقوله ﷺ : « الا ادلكم على افضل من درجة الصلاة والصوم ؟ إصلاح ذات الدين »

وكحسن الجوار بقوله : « اتدري ما حق الجار عليك ؟ اذا استعانك اعنته ، واذا استقرضك اقرضته ، واذا افتقر عدت عليه ، واذا مرض عديته ، واذا اصابته سراء هنأته ، واذا اصابته مصيبة عزيتة ، واذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب الريح عنه الا باذنه ، ولا تؤذنه بقتار ريح قدرك الا ان تغرف له منها ، واذا اشتريت فاكهة فأهد له ، والا فادخلها الى بيتك سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

كما اغرى الاسلام بالمساعدات والخدمات الاجتماعية ، فاعتبر مساعدة الضعيف صدقة ، وازاحة الاذى عن الطريق صدقة ، وحث على التعاون ابتغاء خير الجماعة فقال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال عليه السلام : « من ادخل السرور على اهل بيت من المسلمين لم ير الله جزاءه دون الجنة » .

كما قال : لأن يمشي احدكم في حاجة اخيه خير له من ان يعتكف في مسجدي هذا شهراً .

٤ - اعلان الاخوة الانسانية ، واسقاط التفاضل بالانساب والمظاهر :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » ، بهذه الصيغة الثائرة واجه الاسلام الاحساب والانساب والتفاضل القبلي ، ثم راح صاحب الرسالة العظيم يطبق ذلك تطبيقاً عملياً ، فيكتب بين المسلمين واليهود صحيفة الموادة يساوي فيها ، بين الفريقين ، في الحقوق والواجبات ويأتي قادة الفتح الاسلامي ليرسموا هذا الطريق ، فيفعل مثل ذلك المشى وسعد مع النصارى الذين حاربوا معه في البويب وفتح بهم فارس والمدائن .

لغات نبوية حول الاخوة الانسانية :

ويوصي الرسول العظيم اهله فيقول : « التمسوا لكم عملاً ينجيكم من الله ، فوالله لا اغني عنكم من الله شيئاً » .
ويعر به ، وهو في جماعة من اصحابه ، رجل حسن الهيئة فيقول لهم : ما تقولون في هذا ؟ فيقولون : هذا والله حري اذا قال ان يسمع لقوله ، واذا خطب ان ينكح فيصمت الرسول العظيم . فيمر بهم رجل آخر تبدو عليه مظاهر الاقلال فيسألهم : ما تقولون في هذا ؟ فيقولون يا رسول الله والله انه حري اذا تكلم الا يسمع له واذا خطب الا ينكح . فيقول محمد عليه السلام كأنه يعطي الانسانية كاهادرسا في ان الخلق العظيم ميزان الافضلية ولو كان صاحبه مثال الفقر والفاقة ؛ يقول عليه السلام : لهذا خير من ملء الارض من هذا » .

العدل اساس الملك :

ولقد رأى الاسلام ان العدالة لقيمة لها اذا لم يكن هناك قضاء عادل ، بين

الناس ، فجاء التاريخ يشهد بان المسلمين وفروا للناس عدالة قضائية جعلتهم طليعة الامم العادلة على الارض .

يوصي القرآن الكريم بالعدل ، ويشدد على ذلك بقوله : «واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » . « .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

فيقيم المسلمون أسس مملكتهم ، وقواعد حكمهم على العدل ، على هذه الركيزة الامينة الراسخة ، التي لا يمكن ان يتزلزل حكم اذا كانت هي قاعدته ، وبفضل التوجيه الحمدي ، يتغلغل حب العدل ، في نفوس اتباع الاسلام ، فيصبح شيئاً من دمهم واعصابهم .

فهذا عمر بن الخطاب يوصي ابا موسى الاشعري حين بعثه قاضياً على الكوفة بوصية لا تزال حتى يومنا هذا ، مصدرأ من مصادر التشريع ، في اصول المحاكمات ومثلاً يحتذى في تلقين آداب القضاء ، يقول عمر رضي الله عنه وهو يوصي ابا موسى :

اما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك وأنفذ اذا تبين لك . فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً او احل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ثم راجعت فيه نفسك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ، والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل .

الى ان يقول : اياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الاجر ويحسن الذخر ... الى آخر تلك الوصية التي ما زال طلاب الحقوق يتدارسونها في الجامعات حتى اليوم .

وهذا هو ايضاً يطلق في سمع الدنيا صرخته التي ما تزال تدوي ، متى استعبدتم

الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ، يصفع بها كل من يحاول ان يستغل نفوذه
للاحاق الاذى بالناس ، او انزال الحيف والظلم بهم . وهي تذكرنا دائماً كيف
ضرب الفاروق العظيم ابن الاكرمين ولد الحاكم عمرو بن العاص اقتصاصاً منه ،
لانه تطاول على احد رعايا المسلمين .

وهذا هو ايضاً ، يقيم حد الزنى على ولده ، فيستغيث به ولده ، ويقول :
ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، إلا مزقتني إرباً إرباً ، ولا تفضحني بين المسلمين ،
فيقول له الخليفة العادل جاعلاً العدالة فوق عاطفة البنوة :

« يا بني وماذا اصنع بقوله تعالى : وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين »

الناس امام العدل سواء :

ولو اردت - قارئ العزيز - ان اتقصي اخبار العدالة القضائية في الاسلام
عبر التاريخ ، لأعوزتني المجلدات ، ولكنني قبل ان انتقل الى الناحية الاقتصادية
أود ان اشير الى ان الاسلام اسقط الفروق الدينية في القضاء ، فالمتقاضون امام
عدالته سواء لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، وكلنا يذكر كيف نهى الرسول عليه
السلام عمر عن البطش باليهودي الذي اغلظ في طلب حقه من الرسول ﷺ وكيف
انكر عليّ كرم الله وجهه من أبي بكر رضي الله عنه انه مّيزه عن خصمه اليهودي
بالكنية ، مما يثير الشبهة في نفس المتقاضي .

كما ان الاسلام اسقط الاعتزاز بالعاطفة والقرابة ، وقد سبق ، وذكرنا في موضع آخر
موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من ابنه واقامته الحد عليه . وتأكيداً لهذا
المبدأ ، نود ان نشير اشارة عابرة لحديثه عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه :

— لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

العدل الاقتصادي توأم العدل الاجتماعي

ان كل عدل لا يقوم على اقتصادٍ منظم .. فهو عدل ناقص بل عدل ظالم ان صح التعبير ، فلن نكون عمليين حين نقولُ للجائع او العادي او المفلس او العاطل عن العمل ، لا ترتكب الجريمة قبل ان نحقق له مجتمعا صالحا لا يجوع فيه ولا يعرى ولا يتعطل عن العمل .

ولا شك ان المجتمع الذي يطبق القانون بحرفيته على من لا يؤمن لهم مثل هذه الضمانات مجتمع فاسد ظالم مهدد بالانهيار .

فلنر ، كيف نظر الاسلام الى العدالة من زاويتها الاقتصادية :

لقد امر الاسلام بتأمين العمل لكل قادر عليه . ونظر الى كل نوع من العمل مهما كان ، نظرة احترام وتكريم . وقصة الرسول مع ذلك العامل الذي انتفخت يده من العمل معروفة فلقد حيا رسول الله هذه اليد العاملة قائلا : هذه يد يحبها الله ورسوله ، والاحاديث الرامية الى تمجيد العمل ، وتفضيله احيانا على العبادة واعتباره نوعا من العبادة ، كثيرة جدا لا مجال الآن لسردها وتفصيلها .

ولكن يجب ان نلاحظ ان الاسلام ساوى في الكرامة الانسانية بين الخادم والمخدوم ؛ والمالك والاجير . وهذا ما لم تعرفه الانسانية في غير تاريخ الاسلام .

ولم يكتف الرسول بالناحية النظرية ، بل طبق ذلك على نفسه عمليا فكان يعمل في مهنة اهله ، وبأكل مع خادمه ، ويطحن عنه . وذهب الى ابعد من ذلك ، فأمر بأن يدفع صاحب المال للعامل اجراً اضافياً عن العمل الاضافي ، وهذا خير ما توصلت اليه اليوم احدث النظريات الاجتماعية .

ولا شك ان بذور الضمان الاجتماعي على انواعه متوكررة في الاسلام . فلقـد كفل هذا النظام ما نسميه نحن اليوم المخاطر الجسدية والمهنية والعيلية :

قد مت جماعة^١ من التجار الى المدينة فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك ان تـحـرُسَـهُم من السرقة ؟ فوافق عبد الرحمن ، وباتوا يحرسان القوم . وسمع بكاء صبي بينهم فتوجه الى امه قائلاً : اتقي الله واحسني الى صبيك . ثم عاد الى مكانه ولكن الصبي عاد الى البكاء فعاد عمر اليها يُقَرِّعُهَا ، غير انه في المرة الثالثة قال لها :

ويحك اني اراكِ امَّ سوء مالي ارى ابنك لا يقرّ منذ الليلة :

فقالت له : يا عبدالله لقد ابرمتني الليلة . إني أربعه على الفطام .

قال : ولم ؟ قالت : لان عمر لم يفرض للرضيع فعجلت في فطامه لآخذ له نصيب الفطيم واستعين به على فقري .

فانصرف عمر الى بيته وصلى الفجر فلما سلّم ، قال : يا بؤساً لعمر ! كم قتل من اولاد المسلمين . ثم امر منادياً فنادى : الا تعجلوا اولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام .

وجاءت اليه يوماً امرأة وقالت : يا امير المؤمنين هلك زوجي وترك صبيّة صغاراً ليس لهم ضرع ولا زرع ، واخشى عليهم المجاعة ، وانا ابنة خفاف بن امين الغيفاري . فقال لها عمر : مرحباً بنسب قريب . ثم انصرف الى بعير قوي ، فحمله غراريتين ملاًهما طعاماً ، وجعل معها نفقة وثياباً ، وناولها المرأة قائلاً : اقتاديه فعسى ان يغني هذا حتى يأتىكم الله بخير .

لا استغلال :

لقد تشدد الاسلام في نظريته الى العدالة من زوايتها الاقتصادية فحرّم مانسمية اليوم بلغتنا السياسية ، الاستفادة غير المشروعة عن طريق استخدام النفوذ والسلطان .

وحبذا لو اصغى حكامنا اليوم الى التاريخ الذي يروي من روائع الاسلام وقضائه وسلكه اتباعه الاولين ما يلي :

رأى عمر بن الخطاب إبلا سمينة ، فسأل عن هذه الابل ، فقيل له : انها لعبد الله بن عمر فقال عمر : ما سمعت ابل عبد الله الا لانه ارعاها يجاه امير المؤمنين ادفعوا بها الى بيت المال .

واستدان بعض ولد عمر مالا من ابي موسى الاشعري اذ كان والي الكوفة فتاجر به فاصاب ربحاً كثيراً ، فلما تطاير خبر هذا الربح الى عمر استجوب ولده عن مصدره فاجابه انه تاجر بمال استقرضه من ابي موسى فدر عليه هذا الربح الكثير ، فقال عمر : انك حينما اشتريت ارخصوا لك الثمن ، لانك ابن امير المؤمنين ، وحينما بعت اغلوا لك الثمن لانك ابن امير المؤمنين . اذهب الى بيت المال فشاطره تجارتك .

وفي خلافة علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ، قدم عليه اخوه عقيل وكان ذا عيلة فسأله الزيادة في حصته من بيت المال حتى تقوم بحاجة ابنائه فواعده المساء ، فلما اقبل في موعده قال له خذ هذا ... وأشار الى شيء في الارض حسبه عقيل صرة فيها مال فهوى اليها فاذا هي جمرة من النار تكوي انامله ، ففزع وقال لعلي : بشس ما جزيت اخاك وبني اخيك ، اسألك مالا استعين به على حاجتهم فتعطيني

جمرة ؟ فقال له علي : أهذا مبلغ فزعك من جمرة أحماها صبي للعبه ، وتريد ان تقذف بي في نار سمّرها جبار لفضبه ؟

حلقات التكافل الاجتماعي :

بقيت ناحية مهمة جداً من الموضوع ، وهي مبدأ التكافل الذي فرضه الاسلام وعبر عنه بالامور التالية :

١) بالزكاة وهي فريضة غايتها الحد من مساوئ النظام الاجتماعي وقاه فنجحت الى حد بعيد ، في تحقيق العدالة الاجتماعية بوجهها الاقتصادي اذ يروي لنا التاريخ ان عمر بن عبد العزيز لم يجد في زمن ولايته فقيراً يصرف له من فيض الزكاة .

٢) بالصدقة ، وقد كان الرسول ﷺ يرغب بها ويحث عليها فيقول لعائشة « اتقي النار ولو بشق تمره » و « ما نقصت صدقة من مال » .

٣) بالوصية في المال لوجوه الخير والفقراء ، وقد كان الرسول ايضاً يرغب بها ويحث عليها : يروي ان ابن عوف سمع النبي ﷺ يرغب في الوصية للفقراء بشيء من المال فبلغ من تأثره ان دعا بكاتب وجريدة ثم امر باحصاء ثروته واحصى الفقراء في جريدة اخرى ثم قسم ماله جميعاً بين الفقراء . وبعد ان فرغ من تفريق ثروته كلها تذكر ثلاثة من الفقراء ، لم يوص لهم بشيء وعزاً عليه ان ينتقص ما سبق ان اوصى به لعامة الفقراء فلم يجد الا متاعه الخاص فأمر الكاتب ان يلحق في جريدته : وان عمامي لفلان وان قيصي لفلان وان دابقي لفلان . فلما بلغ امره رسول الله دعا له ثم قال : حسبك الثلث وفي الثلث كفاية .

٤) بالميراث الذي يهدف الى تفتيت الثروة واشاعتها بين اكبر عدد ممكن من افراد الاسرة منعاً لتحجر رؤوس الأموال وتجمعها في يد واحدة .

الدين والدنيا :

لا احسب ان نظاماً من الانظمة الاجتماعية الحديثة ، مهما بلغ من الحرص على تأمين العدالة ، يستطيع ان يؤمن هذه العدالة ويوفرها للمجتمع كما امنها الاسلام ووفرها .

فالاسلام مع كونه ديناً يعنى بتطهير الروح وتهذيب النفس فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية وادرك ان هذه الحياة لا يمكن ان تستقيم ، وان يبلغ الانسان فيها سعادته ، الا بتحقيق التوازن بين الروح والمادة .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » يمثل هذا الفهم الواعي للحياة ، بدأ الاسلام نضاله لبناء مجتمع صحيح يتحقق فيه التوازن ، وقد استطاع ولا ينكر ذلك الا المكابر ، استطاع ان يقيم مجتمعاً صالحاً اعطى الانسانية الكثير من قيمها ودفع بها الى الامام في معارج الرقي والتقدم والحضارة .

اين هو المجتمع المثالي ؟

ان التاريخ يشهد بان الاسلام كنظام اجتماعي ، اثبت جدارته لتنظيم الحياة وتنظيم ارائها . وما الحضارة العربية الزاهية ، في الاندلس ودمشق ، والمدينة المنورة ؛ وما الوثبة الرائعة التي فتحت العيون الكلية على النور والحريسة ما ذاك كله الا ثمرة ذلك التنظيم وعطاء ذلك النظام .

هاتوا لي - قرائي الاعزاء- في القرن العشرين، في قرن الذرة، في قرن المعجزات العلمية ، هاتوا لي انسانا كالانسان الذي رباه الاسلام ، هاتوا لي انساناً يفهم القرآن كما فهمه العرب الاولون ، ويطبق احكامه وتعاليمه كما طبقوها ، ويشيع روحه في نظام الحكم كما اشاعوه، هاتوا لي انساناً من هذه الطينة . اعطكم مجتمعاً صالحاً لا عوج فيه ولا امتاً ، مجتمعاً لا يحتقر فيه الانسان ولا يجوع ولا يعرى .

من حقنا :

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : إفتح اذنك لتسمع صيحة الاسلام تصرخ بالناس صراخاً يفرع الظالمين والجشعين « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ثم تؤجج عليهم ثورة المظلومين والمحرومين بالحديث النبوي : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يضره على يديه اوشك الله ان يعصمهم بعذاب من عنده » وبكلمة ابي ذر المدوية : « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته - كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه » .

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح عينك لترى محمد بن عبد الله تساق اليه اموال الارض وكنوزها ورغد عيشها وهو الحاكم المطاع فيفرقها في الناس ، ولا يحرم منها الا خاصة اهل وذوي قرباه ، حتى اذا عاتبه نساؤه في ذلك اعلن ان ولاية الامر ليست مغنماً يمتاز به السلطان عن سائر الناس ولكنها مغرم يستعذب فيه الحرمان لكفالة تحقيق العدالة بين الناس... « ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرّ حكن مراحاً جميلاً ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيماً » .

أليس من حقنا ان نستوقف ركب التاريخ لنقول له : سجل بمداد الفخر

والاعجاب : ان رئيس الدولة الاسلامية الاولى صلوات الله عليه قد مات ودرعه
مرهونة عند يهودي . وان ابا بكر قد فارق الدنيا محروما من كل مال كان له قبل
الخلافة ، وان عمر ، كان يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتني مسؤولا عنها
بين يدي الله :

ورثنا المجد عن آباء صدقٍ	أسأنا في ديارهم الصنيعا
اذا المجد الرفيع توارثته	دعاة السوء اوشك ان يضيعا

الديموقراطية المفقودة

● الديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ومبادئها هواء ، اما ديموقراطية الاسلام فسلوك انساني رفيع ، يركز الى ابل ما في النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

● تعاملوا نتبع ديموقراطية فرنسا . . ام الحريات ، وننفخ صسلوكها تجاه الشعوب لناس الخدعة الكبرى التي اختبأت وراء البرقع الحريري الرائع ، انها تتغزل بالحريات وكرامة الانسان ثم تنكفيء لتشكل بالحريات ولتنتهك - بكل استخفاف - كرامة الانسان .

● تعاملوا نبحث عن اثلة من ديموقراطية بريطانيا ، والولايات المتحدة ، بين مليون متشرد عربي ارادت لهم ديموقراطية الانكليز والامريكان ان يموتوا جوعاً وبؤساً وعربياً ، ارضاء لحفنة من المرابين .

انا نظلم « الديموقراطية » حين نسبها ظلاماً وعدواناً الى المتآمرين على الشعوب ، الذين يتاجرون بالمبادئ ، ويدنسون طهارة المثل .

لقد كثر الحديث ، في عصرنا عن الديمقراطية ، وكثر المتشدقون بهذه الكلمة ومن واجبنا اليوم ان نخط اللثام ، عن وجه اولئك المتشدقين ، وأن نبين للناس الفوارق بين ديموقراطية مزعومة ، وبين ديموقراطية صحيحة ، هي ديموقراطية الاسلام ، ذلك الدين الذي اراده الله نظاماً للحياة المثلى ، ومطهرأ للنفس الانسانية من ادرانها وشوائبها .

إن الرجعة العابرة الى التاريخ الاسلامي ، تظهر تلك الفوارق بوضوح وجلاء فالديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء، حشوها هواء ، ومبادئها هراء ، اما ديموقراطية الاسلام فسلوك إنساني رفيع يرتكز الى انبل ما في النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

فأين ديموقراطية اليوم من ديموقراطية ابن عبد الله ؟ ذلك اليتيم الأمي الذي نبتهته الصحراء وهياتته الاقدار لانقاذ العرب من ظلمات الجهل والفوضى والضعينة .

ديموقراطية محمد :

لقد استطاع محمد ﷺ ان يدحر قريشاً ، بعد ما ارغمته هي على ان يخوض معها معركة حياة او موت ، استطاع ان ينتصر على عنجهيتها باتباعه القلائل الذين لا سلاح لهم : إلا الايمان بالله ، والتضحية بكل شيء في سبيل العقيدة ، فماذا فعل محمد بقريش التي عذبتة وآذته وأدمت قدميه ، ورجمه سفهاؤها في الامس القريب ، بالحجارة ؟

أترأه سيتيح للسيوف العطشى أن ترتوي من دماءهم ؟

أترأه سينتقم للضحايا التي ارداها الظلم والتعذيب ؟

اتراه سينسى كيف ارغموه واتباعه على الهجرة مرتين ، وكيف حاصروه في الشعب حتى اضطر هو وهؤلاء الاتباع ان يأكلوا العشب ويتغذوا بأوراق الشجر !

كلا ان محمداً لم يبعث ليؤجج نار الضغينة . ولم يرسل ليعطي الامائيل في الانتقام والثأر ؛ لذلك وقف بين الكفار من قومه وكلهم مطرق امام الفاتح المنتصر وقف ليسألهم : ما ترون اني فاعل بكم ؟

ولا حظ ابن عبد الله ان بعضهم يرتعد فرعاً ، وقرأ في عيون الكثيرين منهم انهم يتوقعون منه ان ينزل بهم شد العذاب والتنكيل جزاء ما قدموا ، فاحب ان يحقق قول الله فيه : وانك لعلى خلق عظيم .

لقد قال لقومه الذين عذبوه وعذبوا اتباعه ما لم يقله فاتح في التاريخ لأعدائه ، قال لهم : اذهبوا فانتم الطلقاء .

وذهب الطلقاء مشدوهين ، وادركوا عندئذ ان رسالة محمد هي رسالة الحق والخير والمحبة والسماح .

واليكم قرائني الاعزاء جانباً آخر من ديموقراطية محمد ﷺ :

ان الرسول العظيم الذي سيطر على جزيرة العرب لم يداخله الكبر يوماً . ومعاذ الله ان يداخله شيء من هذا ، لقد كان باستطاعته ان ينعم من الدنيا بما يشاء وقشتهى نفسه . كان باستطاعته ان يحيا حياة الملوك والقيصرة . كان بإمكانه ان يتمتع بموارد الدولة التي اقامها بجهاده ونضاله . ولكن معاذ الله ان يزل محمد أو يتبدل ، فلقد ظل وهو الرسول العظيم وسيد قریش وزعيمها السياسي الاكبر، ظل يخصف نعله ويحلب شاته ويرقع ثوبه ، ويحيا حياة المتقشفين الزاهدين لأنه يعرف تمام المعرفة انه المثل الاعلى للرعية ، وان المثل يجب ان يظل على سموه ليظل مثلاً اعلى .

ليسمع عظماء اليوم :

قد يقول قائل : تحدثنا عن ديموقراطية محمد ، ومحمد نبي حلاه الله باخلاق الانبياء ، فلا يمكن ان يصدر عنه الا ما هو خير وحق وعدل ، فدلنا على الديموقراطية عند اتباع محمد .

اجل قرائي الاعزاء ان محمداً نبي بعث ليتمم مكارم الاخلاق ، فتعالوا معي الى فرائد التاريخ الاسلامي وكنوزه ، نستخلص منها الشواهد على ديموقراطية المؤمنين بمحمد .

لقد انتقلت اعباء القيادة الدينية والزمنية بعد وفاة الرسول الى ابي بكر الصديق ، فأنفذ اسامة بن زيد على رأس جيش الى الشام ، وزوده بهذه الوصية التي يجب ان تكون دستوراً للناس في القرن العشرين : قال ابو بكر لجنود اسامة :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لما كله ، وسوف تمرون باقوام حبسوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا انفسهم له . »

الا فليسمع جزاؤ القرن العشرين ، ليسمع اولئك الذين ازهقوا مئتي الف نفس بشرية بريئة بقتلة ذرية واحدة ، تحت من الدنيا مدينة « هيروشيا » .

ليسمع اولئك الذين لا يرحمون طفلاً ولا شيخاً ، ولا امرأة .. في المغرب العربي ليسمع اولئك الذين اتخذوا الغدر ديدناً وخطئة .

ليسمع اولئك الذين يرون النصر كل النصر في احراق الارض وما عليها .

وتدمير ما اقامه جهد الانسان فوقها .

ليسمع اولئك الذين تلعنهم كل شجرة مثمرة قطعوها ، وكل روح دابة ازهقوها
ليسمعوا وليتنامذوا على الاسلام .. الذي اراد ان يحفظ للانسان كرامته حتى
في ساحات الحروب .

صفحة ناصحة :

لنقلب صفحة ثانية من صفحات تاريخنا .. فهذا عمر بن الخطاب يتولى شؤون
المسلمين ، فيشعر منذ اللحظة الاولى التي تنتقل اليه فيها اعباء القيادة ، بثقل المسؤولية
الملقاة على عاتقه ، فيصمم ان يرضي الله ورسوله وضميره والشعب .

ولكي نصوّر ديموقراطية ابن الخطاب نحب ان نذكر هذه الحادثة
البسيطة التي تحمل في مطاويها اعماق معاني الديموقراطية واسمى مظاهر الانسانية :

لقد كان عادة هذا الخليفة العظيم ان يتفقد احوال الرعية متنكراً متستراً بظلام
الليل وصدف ان سمع في احدى جولاته الليلية صبية يبكون ، فاحب ان يستطلع الامر ،
وسرعان ما توضحت له خطوط المأساة .

لقد رأى عجوزاً تضع قدرها على النار ، وصبيتهما من حولها يضجعون . انهم
جياع يقض الطوى مضاجعهم ، وليس في الكوخ ما يسد الرمق ، وليس باستطاعة
العجوز المسكينة ان تتغلب على البؤس الذي يضارعها ويضارع صغارها ، فلبجات
الى الحيلة تتخذ بها الصبية دون ان يتاح لهما ان تتخذع للجوع .

ووضعت على النار قدراً وملائه ماء وتركته يغلي . وكانت كلما الح صغارها
في البكاء تسرف في تهدئتهم ، وإيهاهم ان الطعام المؤمل قارب ان ينضج ، عليهم
يلتهون بالوعد فما هم فيه فيناموا .

رأى الخليفة هذه المأساة الحية ، ففاضت عيناه بالدموع ، وسارع الى بيت المال فحمل على ظهره كيساً من الدقيق ، وقصد بيت العجوز التي تخدع صبيتها ، ففرع بابها والقى الكيس بين يديها ، ثم باشر في اعداد الطعام لصغارها . وكان كلما خبت النار أو كادت ، ينحني عليها لينفخ فيها ، فيتطاير رمادها الأغبر ، ليتخلل لحيته ، ويملا عينيه ، حتى اذا نضج الطعام وأكل الصبية استراح ضمير عمر . . . هل في تاريخ الامم التي تشدق اليوم بالديموقراطية أمثلة كأمثولة عمر .

امثلة رائمة

وما دمنا نتحدث عن الديموقراطية .. فإليكم أيضاً هذه القصة التي يرويها التاريخ باعتزاز عن ابن الخطاب .

اعتلى عمر المنبر مرة ليخطب الناس فقال : ايها الناس اسمعوا وأطيعوا . فانتصب من بين المصلين بدوي رث الهيئة زري المنظر ، وجابه خليفة المسلمين قائلاً : لا سمعاً ولا طاعة يا عمر .

وثار تائرة المصلين ووثبوا الى البدوي الجلف يريدون ان يحسنوا تأديبه ، وان يعلموه كيف يخاطب امير المؤمنين . ولكن ابن الخطاب يصيح بهم : دعوه ! . . . وهدأت الخمرضاء ، وبقي بريق العيون الغاضبة الحانقة ينصب خيفاً مرعباً على رأس البدوي .

وسأل عمر البدوي المتمرد الذي لا يريد ان يسمع ، ولا يريد ان يطيع ، سألته برفق : ولم يا اخا العرب ؟

وارتفع صوت البدوي متهماً ، قال للخليفة ما معناه : لقد رزعتم الخبرات اليمانية التي غنمناها فأصاب المحارب منا حبرة من هذه الخبرات ، وقد حاولت وأنا

المتوسط القائمة ان اجعل منها ثوباً لي فلم تكفني ، وها انذا اراك وانت الرجل الطويل الفارع ، ترفل بثوب من تلك الحبرات .

وسكت البدوي... وظل صدى صوته يصفع ابن الخطاب بهذا السؤال : من اين لك هذا ؟ من اين .. يا عمر ؟

ومرة ثانية يشور الضجيج . فالبدوي الوقح يتهم امير المؤمنين ، يتهمه بالاثرة والتوسيع على نفسه من مال الامة . يتهمه بأنه يأخذ من الغنائم اكثر مما يأخذ المجاهدون .

ومرة ثانية يهديء ابن الخطاب من ثورة الغاضبين ، ويتسمم للاتهام الخطير ، ابتسام الواثق من البراءة ثم يلتفت الى ابنه عبدالله قائلاً :
اجبه يا عبدالله !

ويقف ابن الخليفة ليعلن على الناس كيف لبس امير المؤمنين ثوباً من الحبرات اليبانية التي لا تكاد الواحدة منها تكفي لثوب رجل واحد ، واوضح لهم انه تنازل عن نصيبه من الغنيمة لوالده فجعل من الحبرتين معاً ثوباً له .

واقتنع الاعرابي المتشكك بعدالة الخليفة ، وادرك انه اسرف في سوء الظن ، فاغرورت عيناه ، ووقف وهو يحبس الدمعة بين اجفانه ، ويقول بإجلال واكبار :
الآن سمعاً وطاعة يا امير المؤمنين :

اختيار الحكام :

وكان عمر اذا استعمل الولاة على الامصار ، يقول لهم : اني لم استعملكم على امة محمد ولا على اشرارهم ولا على اشرارهم ، وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقدروا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، فإذا خالف الامير

الوصية ، فشتهم احداً من الرعية ، او ضربه ، او حابى احداً في العطاء ، او صانع احداً في القضاء ، او احتجب عن الناس وتهاون في خدمتهم ، كان لعمر معه موقف ينتهي دائماً الى الاقتصاص للرعية من الامير او مصادرته او عزله ، او الى هذا كله .

والواقع ان اكثر العمال الذين عزلهم عمر إنما عزلهم لخيانتهم في الاموال العامة ، او لاستطالتهم على الرعية ، او لعجزهم عن خدمة الشعب ، ولكنه لم يعزل عاملاً لمجرد ان اجتهاده في الامور مخالف لاجتهاد عمر ، وإنما كان يراقب عماله ، وينصحهم احياناً ، ويأمرهم احياناً ، لقد كان عمر « بحكمة تميز » بالنسبة لهم ... لا تمنع الاجتهاد ولكنها تمنع سوء الاجتهاد ، ومن الحق ان نقول ان مراقبته لعماله كانت شديدة الوطأة ، وكان يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، لانه كان يعد نفسه مسؤولاً عن عماله متحملاً لأوزارهم .

فقد كان يجمعهم في موسم الحج ، ليحاسبهم ولينظر فيما عملوه طول السنة . وليصفي الى شكاوي الرعية منهم ، وكان اذا ثبت له ان الامير ضرب احداً من الناس ، اعطى المضروب درته وقال لهم : هلم اقتص من الامير .

وكان إذا بعث بعامل يشترط عليه ان لا يركب برذونا ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يتخذ حاجباً .

وقد بلغه مرة ان عاملاً على البصرة خالف هذه الوصية ، فكتب اليه : بلغني انه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ، ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها همٌ إلا السمن وانما حتفها في سمنها .

وأخبر ان عامله على مصر يلبس الرقيق ، ويتخذ الحاجب ، فأمره عمر بالتدوم
فقدم عليه ، فلما رآه قال : إنزع قميصك ، ودعا بمدرة صوف ، وبريضة من
غنم وعصا ؛ وقال له : لبس هذه المدرة ، وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم ،
أسمعت ؟ قال نعم ، والموت خير من هذا .

وسأل اهل حمص عن اميرهم عبدالله بن قرط فقالوا : خير امير : إلا انه قد
بنى عليه يكون فيها ؛ فأمر احد رجاله فجمع خطباً واحرق باب عليه الأمير .

وكتب الى سعد بن أبي وقاص اميره على الكوفة ، وكان استأذنه في بناء بيت
يسكنه : « ابن ما يترك من الشمس ويكفيك من الغيث » .

وكان عمر ينهي عماله عن قبول الرشوة ، ويمنعهم من التجارة . فمن اتّجر قاسمه
ماله . ومن عماله الذين صادرهم ، ابو هريرة عامله على البحرين . فقد اخذ منه ما
ربحه من التجارة وجعله في بيت المال ، فليس من شأن الامراء ان يشتغلوا بالتجارة
ويزاحوا الرعية في عملها ورزقها .

وطلب عمر في زيارته للشام ، ان ترفع اليه اسماء الفقراء ، فرفعت اليه رقعة
فوجد فيها اسم سعيد بن عامر اميره على حمص ، وكان اهل حمص قد شكوه الى
عمر وقالوا : انه لا يخرج اليهم حتى يتعلّى النهار فسأله عمر عن ذلك فقال :

نعم ، فليس لأهلي خادم ، اعجن عجيني حتى يختمر . ثم اخبز خبزي ، ثم
أتوضأ ثم اخرج اليهم .

واستعمل عمر على حمص « عمر بن سعد » ثم كتب اليه : ان يقدم عليه . فقدم ماشياً ، حافياً ، معه عكازته وادواته (١) ومزوده وقصعته على ظهره ، فعجب عمر من حاله . وقال له يا عمر أختننا م البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا امير المؤمنين اما نهاك الله عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا اجرها برقاها ؟

قال عمر : وما معك من الدنيا : قال : عكازي اتوكأ عليها وادفع بها عدواً ، ان لقيته ، ومزودي أحمل فيه طعامي ، وادواتي هذه أحمل فيها ماء لشربي وصلاتي ، وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل رأسي . فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا قبعاً لما معي .

ما قرأت مثل هذه الاخبار المنتثرة في زوايا تاريخنا العربي الرائع ، الا وتواثبت في ذهني ، صور من المقارنة بين اولئك الاجداد ، وهؤلاء الاحفاد ، بين ولاة الامس واولياء اليوم ، الذين يعتبرون الخدمة العامة وسيلة للاثراء والكسب غير المشروع ، والذين يعتبرون الاموال العامة ، رزقاً مستباحاً يحل لهم أكلها بالباطل ، والذين تستهويهم مظاهر السلطان الزائل فلا ينتقلون إلا بموكب ، ولا يتحركون الا بضجيج يصطفونه حولهم ليضفي عليهم هالة من العظمة ، والأبهة الفارغة ، والوقار السخيف .

لقد كانت العدالة عند اجدادنا ، هي الجند الحارس الامين لذي السلطان يحتمي بها ، ويستظل بظلها . اما اليوم ، فالبنادق التي لا تنام ، والجند المدجج الذي لا يستقر ، والاسوار التي لا تقهر ، هي الحرس الذي يحشده الحاكم لحماية نفسه من

« ١ » اثناء صغير من جلد يتخذ للماء (المطهرة)

مظالمه . هذه المظالم التي يزرعها في كل مكان فلا يحصدنها إلا نقمة وثوراة ولعنة في
اهون الاحوال .

ديموقراطيتنا وديموقراطيتهم :

لقد ضربت لكم -- قرائي الاعزاء -- فيما سبق الامثلة على ديمقراطية الاسلام
في كل مجلى من مجالي الحياة ، وسأحاول ان استعرض معكم بعض « العينات » من
ديمقراطية الغرب .

لن ارجع بكم القهقري الى العمود التي كان الغرب يزرع فيها تحت وطأة الجهل
والهمجية؛ فستقولون إن الديمقراطية لا يمكن ان تنشأ في كنف الجهل ، ولا يعقل
ان تترعرع في ظل الهمجية .

لن احدثكم عن محاكم التفتيش في اسبانية ، وعن تلك المجازر الرهيبة التي
اقترفها الوحش الهائج وقضى بها على مئات الالوف من العرب ، لا لذنوب الا
لانهم حملوا الى الغرب رسالة النور والتهذيب والسمو والتمدين .

ولن احدثكم عن الحروب الصليبية، تلك الحروب التي التقت فيها نذالة الغرب
بنبل الشرق .

لن احدثكم عن ذلك الحقد الوحشي، الذي دفع بالكتائب العطشى الى الدم ،
فانطلقت باسم المسيح ، تدنس مقر المسيح ، وتقوض دعائم المحبة التي اقامها ،
وتنشر الدمار في ارض السلام التي اراد لها ان يظلها غصن الزيتون .

لن احدثكم عن كل ذلك ، وانا سأضرب صفحاً عنه ، وانتزع امثلي من
عصور النور ؛ من العصور التي بلغ الغرب فيها ذروة الرقي المادي وهوى فيها مع
الاسف ، الى اسفل دركات الانحلال الروحي .

ماذا تفعل فرنسا ؟

يعلم الجميع ان فرنسا ، ما لبثت منذ ثورتها تدل على الدنيا ، بما طلعت عليها من مبادئ وقررت حقوق الانسان . فتعالوا نتتبع ديمقراطية فرنسا ، أم الحريات . . تعالوا نتفحص سلوكها تجاه الشعوب للناس الخدعة الكبرى ، التي اختبأت وراء البرقع الحريري الرائع .

أليس من المضحك حقاً ان ترتفع عقيرة فرنسا مثلاً لتردد على مسمع الدنيا ، أسطوانة أمجادها ، ولتتغزل بالحريات وكرامة الانسان ، ثم تنكفي لتتكلم بالحريات ولتنهك — بكل استخفاف — كرامة الانسان .

مجازر الجزائر :

لن أذكركم بفظائعها في سورية ولبنان ، وكلنا ما زال يذكر كيف غرست أرضنا مآسي ، وإنما أود ان انقل اليكم شهادة وردت على لسان أديبين فرنسيين معاصرين ، اصدرنا مؤخراً كتاباً عن الجزائر سميها «الجزائر الخارجة على القانون» وقد نشرت مجلة الآداب البيروتية ملخصاً له في عددها الصادر في آذار ١٩٥٦ ، فاستمعوا بالله عليكم الى « كوليت وفرنسيس جونسون» يؤديان امام التاريخ هذه الشهادة ؛ ويعطيان بعض الأمثلة عن بطش فرنسا بالجزائريين فيقولان :

« في مساء السادس من نيسان عام ١٨٣٢ يوجه القائد Rovigo حملة على قبيلة «أليفا» في الجزائر فيذبج جميع اهليها ، دونما تفريق بين شيخ او طفل ، بين امرأة او رجل ، ويحمل الظافرون بعد ذلك رؤوس القتلى على رماحهم » .

« وفي تشرين الاول من عام ١٨٣٦ ترسل الرؤوس كما ترسل الهدايا وتباع الماشية ، لفنصل الدمارك ، ويعرض باقي الغنيمة في سوق باب الزون ، حيث ترى

أساور النساء ، وهي ما تزال في معاصمين المقطوعة ؛ واقراطهن المتدلية من قطع آذانهن ، ويتوزع الظافرون الصفقة ، ويؤمر سكان مدينة الجزائر بعد ذلك بإشعال النار في حوانيتهم ابتهاجاً بهذا الحادث السعيد .

« ذلك ان الفرنسيين المعتدين ، اخذوا يتذوقون حملات الافناء هذه ، وقد خلق لدى محاربيهم ذوق خاص ، للاستمتاع بفنون التعذيب والتقتيل ، وفرض الغرامات المالية فوق ذلك ، بل خلق لديهم ولوع خاص بالغدر والضحك من الوعود والاستهزاء بالعهود والحدود ، فهذه قبيلة تعذب بعد ان اعطيت وعداً بأن تصان ، فيسلب منها أولاً مائة الف فرنك ، وتؤخذ أملاكها دون تعويض ، بل يكره بعض المالكين على ان يغادروا منازلهم ، لتخرب بعد ذلك ، وليدفعوا نفقات تخريبها ، بل نفقات تخريب الجامع هناك ، وهذه معابد وجوامع وقبور وحرقات تدنس وتنتهك ، وها هم أولاء اتباع الحاكم « Bugeaut » يتغنون عام ١٨٤٢ بالخرائق التي شهدوا ناراها الجميلة في قرى : بني مناصر ، وبني سالم ، وبلقاسم »

فظائع مريعة :

ويتابع المؤلفان سرد فظائع فرنسا قائلين « وهكذا يتردى الفاتحون في مجون الفتح ، فيتلاعبون بالانفس تلاعبهم بصيد ، ويشرون الضحايا كما تشرى طيور البر ، فيدفع ثمن زوج من آذان المواطنين عشرة من الفرنكات ، ويبحثون خاصة عن صيد النساء ، فهو عندهم صيد رفيع كامل يحتفظون ببعضه ، ويساومون على بعضه الآخر مقابل الخيل ، ويبيعون بعضه بالمزاد العلني .

وأجمل بدعهم حرق الجماعات . واليكم وضعاً موجزاً للحريق الذي امر به ، عام ١٨٤٥ ، وأي قلم يستطيع وصف ذلك المشهد ، كما يقول أحد الجنود الذين وصفوه :

« في قلب الليل وفي ضوء القمر ، ترى فريقاً من المحاربين الفرنسيين مشغولين

بايقاد نار جهنمية ، وتسمع الأنين الاصح من رجال ونساء وأطفال وبهائم ، وتصل اليك اصوات الصغور وهي تتفتت ، وفي الصباح تدخل الكهوف الثلاثة التي أحرقت ؛ فتري في مدخلها الثيران والحير والخراف ، وبين هذه الحيوانات ، وتحت أرجلها تجد الرجال والنساء والاطفال ، وتشهد بعينيك رجلا ميتا ركبته على الارض ، ويده ما تزال ممسكة بقرن ثور ، وامامه امرأة تحمل صغيرها على ذراعيها ، وتعد القتلى في هذه المغاور الواسعة ، فتبلغ عدتهم ٧٦٠ جثة .

شاهد من اهله :

هذه شهادة يؤيدها فرنسيان . وقد استقيا معلوماتها عن تقرير لجنة التحقيق التي قامت بأعمالها بين ايلول وتشرين الثاني عام ١٨٣٣ . فلننتقل الى عصر الذرة فماذا نجد ، إن الاساليب نفسها ما تزال تستخدم ، والارهاب الفرنسي في المغرب العربي يعتمد على خطة واضحة يعتبرها أنجع الوسائل للقضاء على روح المقاومة ، ألا وهي الافناء . واليكم قصة تناقلتها الصحف ووكالات الانباء ، في بدء الثورة المغربية الاخيرة .

لقد جمع الفرنسيون جميع سكان إحدى المدن الجزائرية ، وصبوا البترول على وجه الماء في المستنقعات القريبة ، ثم امرؤا الجموع بالتوجه الى هذه المستنقعات و عندما لاحظوا ترددها فتحوا عليها نار البنادق والمدافع الرشاشة ، فاندفع الناس الى الماء ، يحتمون به من الرصاص ، حتى اذا غصت المستنقعات بالرجال والنساء والاطفال ، أشعل المستعمرون النار فيها ، ولم يكدها ينتصف النهار ، حتى كان عدد الذين قضوا بهذه الطريقة ، غرقا وحرقا وقتلا يزيد على السبعين الفا .

وأي شاهد على ديمقراطية فرنسا ابلغ واصدق ، من هذه الحرب الافنائية ، التي قشنها فرنسا اليوم على الجزائر ... وتحشد لها مئات الالوف من الجند ، وكل ما لديها من قوى الجو والبحر .

ماذا تفعل بريطانيا :

ومناك ايضاً مثالا صغيراً على ديمقراطية بريطانيا ؟

اسألوا ثرى النيل ، وساحات بغداد ، وربوع الهند ، بل اسألوا فلسطين الشهيدة ، اسألوا مليون متشرد عربي ، أرادت لهم ديمقراطية الانكليز ان يتوتروا جوعاً وبؤساً وعرياً أرضاء خفنة من الافاقين وحشالات الشعوب .

اسألوا طبرياً وحيفا واللد والرملة ودير ياسين ، اسألوا تاريخ دنيا العرب يأتكم الجواب صريحاً لا غموض فيه ولا ابهام : ان نكبة العرب الكبرى من صنع الانكليز ، فهم اساتذة في فن الخيانة والتدجيل على الشعوب ، والتنكر للعهود والمواثيق وازدراء كلمة الشرف ، مدّ لهم الحسين يد الولاة ، ويمين الوفاء ، فطعنه خنجر غدرهم . وطالبهم فيصل بتحقيق الوعود ، وحرية العرب ، فأودت بهم مؤامراتهم . وأنسوا في غازي انتفاضة الإباء ، فحسروا شبابه الريان . وظلوا يناصبون أمة العرب العداة ، يحبكون لها الدسائس ، كلما جمعت عزمها ، وحاولت أن تنهض من كبوتها ، وان تقف على قدميها .

ماذا تفعل امريكا :

قد يقول قائل وما قولك بديمقراطية الأميركي كان ، حماة الحريات الأربع ونافحي الانسانية أمثال : واشنطن ولنكولن وسواهما ؟ لن أتعرض -قرائي الاعزاء- جواباً على هذا التساؤل ، إلى الدور الانساني اللاديمقراطي ، الذي ما برحت أميركة تلعبه منذ ربع قرن تقريباً والذي مثل فيه الرئيس ترومان فصلاً رهيباً .

لن أتعرض الى المجزرة التي أثارها أميركة في كورية ، ولن أبين مدى مساهمتها

في نكبة فلسطين . فقد يكون في التعرض الى هذه الامور ، ما يحمل الشك بأنني أعطى الحكم مشوباً بعيب التحيز وماأخذ الانفعال .

ولكني أود أن أبحث ديمقراطية الاميركان ، من زاوية أخرى ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن المهزلة الكبرى : مهزلة الحريات الاربع . ومبادئ ولسون لم تعد تغني الاميركان شيئاً بعد اليوم .

امثلة من ديمقراطية اميركة :

إن أميركة التي تعتر بجزياتها الاربع . هي اليوم موطن العبودية... موطن التمييز العنصري... في زمن انهارت فيه كل العبوديات ، بما فيها عبودية الالوان . واليكم بعض الامثلة :

لا تزال في أميركة بعض المناطق يحرم على الزوج دخولها . وبعض الاماكن لا يباح لهم ارتيادها ، وقد حرمت قوانين بعض المقاطعات الأميركية على الزوج أن يركبوا في القطار أو الاوتوبيسات التي يركبها البيض .

ومن منا لم يقرأ مأساة الطالبة الزنجية ، المسز «أرثولوسي» ، تلك الفتاة المسكينة التي أقامت مشكلتها أميركة ولم تقعد لها فترة طويلة من الزمن . لقد دفعها حب العلم والرغبة به الى أن تقصد جامعة تكساس ، وأن تعمل بكل الوسائل على الانتساب اليها ، وقد تمكنت بعد جهد من الوصول الى بغيتها ، ولكنها ما كادت تنجح في ذلك ، حتى اعتبر الاميركيون قبول زنجية في جامعة «أميركية» إهانة لا تغتفر لكرامتهم ، وقامت المظاهرات احتجاجاً على ذلك ، وانفلت الناس هائجين ، مطالبين بإخراجها من الجامعة ، ومعاقبة المسؤولين ، الذين مهدوا لها السبيل وأتاحوا لها الدخول .

ونزلات الجامعة عند ارادة الاميركيين « حماة المدنية » فطردت الطالبة ، وعندما

تطوع أحد المحامين للدفاع عنها ، ولتبني قضيتها ، انهالت عليه كتب الاستنكار والاحتجاج ، والتهديد بالقتل إن هو استمر في غيته ، وفي تدنيس الشرف الاميركي الذي لا يرضى أن يزامل الابيض زنجي .

اللون المحرم :

واليكم - قرائي الاعزاء - حادثة اخرى بسيطة ... ولكنها قوية الدلالة ، رائعة التعبير نشرتها الصحف مؤخراً ، وهي ان دلت على شيء فإنما تدل على نمط جديد من ديمقراطية الاميركان .

لقد غصت قاعة مسرح «برمنغهام» في إحدى الليالي بالرواد ، وقد جاؤوها للاستماع الى المغني الزنجي المشهور « ناث كول » وما أن صعد المغني خشبة المسرح حتى ثار الاميركيون البيض ، الذين كانوا في القاعة ويقدر عددهم بـ ٣٥٠٠ شخصاً ، وتقدم منهم عشرات فهاجموا المغني وانهالوا عليه ضرباً ولكماً ، لا لسبب إلا لانه زنجي .

قد يعتقد الكثيرون ان التمييز العنصري غير قانوني في أميركا .

فإليك هذه الحادثة الثالثة : لقد مرت إحدى الفتيات «الطائشات» فتيات الشارع الاميركي ، وما أكثرهن ، أمام فتى زنجي مراهق ، فانتشى المسكين وراعه الجمال المتبرج المستهتر ، فند من بين شفقيه صفيح إعجاب .

أفتدرون ماذا كان جزاء الفتى ؟ لقد هجم عليه شابان اميركيان وانهالا عليه طعناً بالمدي حتى لفظ أنفاسه ومات من يومه . الى هنا والامر عادي بالنسبة للأميركان ، ولكن أفتدرون ماذا كان جزاء القاتلين ؟

لقد أعلنت المحكمة براعتهم ورفضت حتى تغريمهما بجزاء نقدي ، لا لشيء إلا لان المغدور زنجي تحرش ببيضاء ... ولم يشفع له ان الفتاة لعوب ، وانها من فتيات الطريق ، وانه لم يزد على « ابداء اعجابه بها » .

لا وجود للديموقراطية :

أبعد هذا كله يحق للغرب ، أن يتشدد بالديمقراطية ؟
أهي ديمقراطية حقاً ، أن يحارب الغرب الاحرار في كل مكان ، وان يخنق الحرية في كل أرض ؟

أهي ديمقراطية حقاً ، ان يحصد رصاصه الغاشم ، طلاب الانعتاق انى كانوا ؟
أهي ديمقراطية حقاً ، ان تتآمر دول الغرب على كل شعب ضعيف لتتقاسمه تحت سمع هيئة الامم وبصرها وبمعرفتها ؛ وتسرق خيراتهم باسم الديمقراطية وحماية الحريات ، وتحرير الشعوب

أهي ديمقراطية حقاً ، ان تتساند هذه الدول ، كلما ارادت امة مظلومة من امم الشرق ، ان ترفع الكابوس عن كاعلمها ، والنير عن عاتقها ، فاذا ذئاب الغرب لها بالمرصاد ، يخنقون كل انتفاضة ، ويكبتون كل حركة ، ويصعقون كل مناد بالتححر ، او عامل لوحدة الاوطان ؟

انبعاث الديموقراطية العربية :

ليعلم المتشدقون بالديمقراطية ، ان العرب والمسلمين ، قد استفاقوا اليوم ، على الحقيقة الرهيبة والواقع المر ، وانهم باتوا يدركون ماذا تعني هذه الكلمة ، حين يتغنى بها الغرب ، ويتزعم باسمها . انهم يعرفون انها المصيدة ، التي ينصبها العدو الماكر ؛ للطريدة الساذجة . ولم نعد والحمد لله سذجاً يسهل إيقاعنا في الشراك وحبال المصائد .

ان الديمقراطية التي نؤمن بها ، ونعمل لها ، هي ديمقراطية الاسلام ، الاسلام الذي أعطى امثال الخلفاء الراشدين وسواهم من الابطال الذين اسهموا في تقدم الانسانية ، ورفاه البشرية ، ومألوا الدنيا عدالة ومحبة ، واخوة ومساواة ، ونشروا في الارض الطمأنينة ، والحق والسلام .

الإشترائية الإسلامية

« الإسلام أبو الاشتراكية قبل ماركس وإنجاز واضرابها ، وهو الذي نادى بالاشترائية المنظمة ، وقضى على الطبقة ، والفن فروق اللون والجنس والدم ، وفتت الملكية الواسعة ، ورسم المناهج للقضاء على الفقر . وجعل هذه المناهج ركناً من أركانه .

« الاعتدال صفة ملازمة للإسلام في تشريعاته المالية ونحن لا نطالب بالتقشف ، ولا بالحرمان ، ولا بشطف العيش ، ولكننا نطمح بالحياة ونستمتع بعطياتها دونما ترف ولا اسراف .

« ان المسؤول ، حين يحفظ للعامل حقه ، ويصون مستقبله ، ويسيجبه من عوادي الزمن ونوازله ، انما يؤدي عبادة الله ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد شكلها ، بل قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الإسلام ، واوامر الله .

في هذه الغمرة من الصراع العقائدي الذي يحتاج العالم يبدو ان الاشتراكية هي

النظام الذي سيكتب له النجاح ، كوسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية التي ينادي بها الناس ، وكقاهر جبار لذلك الاشتراكي الطبقي الذي كان وما زال بذرة الحقد المدمر ، المودي بالحضارات ، وبكل ما يبني الانسان من خير وحق وجمال .

وقد وقف الناس في شرقنا العربي من الاشتراكية مواقف مختلفة ، فمنهم من تعامى عن حسناتها كلها ، واعتبرها شراً محضاً . وهؤلاء هم الرأسماليون وانصاف الرأسماليين ، ومنهم من ارادها متطرفة جارفة حاكمة ، بل شيوعية بكل الظلال العامية للكلمة . وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالاعتدال . ومنهم من وقف يحاربها باسم الدين ، والدين براء من منطقهم ؛ ومنهم من شوهاها ، واتخذها ستاراً لجر المغنم وكسب الامجاد الرخيصة .

ولا يعني لنا من هذه المواقف إلا واحد . هو موقف اولئك الذين يحاربون الاشتراكية باسم الدين ، ويناهضونها زاعمين انها تناقض جوهره ولا تأتلف مع تعاليمه .

هذا ما سنحاول بحثه الآن .

الاشتراكية قبل ماركس :

قبل ان يكون ماركس وانجاز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية . كان الاسلام أبا للاشتراكية ، وكان محمد ابن عبد الله إمامها الاول :

الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلاء
داوimt متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء

فلقد جاء الاسلام والناس فوضى ، والطبقية المشينة تجلد بسوطها الكافر كرامة الانسان فإراد الدين الجديد ان يعيد للانسان كرامته المسفوحة ، وان يقيم بين الناس علائق اساسها المحبة ، وقاعدتها الاخوة ، وركنهما العدالة ، ولم يكتف بهذا الوجه من الاصلاح بل تجاوزه الى الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي . فالى اي حد استطاع الاسلام ان يكون اشتراكياً في سائر وجوه الحياة ونشاطاتها ؟

الاسلام والرأسمالية :

رأى الاسلام ان الفقر اساس كل مشكلة ، وانه هو الذي يقيم نظام الطبقات وينمي الحقد الطبقي ، فنادى بالاشتراكية المنظمة التي تقضي على الفروق المادية القائمة بين الناس ، وجعل للفقراء حقاً معلوماً في اموال الاغنياء :

«والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» وفرض على الاثرياء الموسرين ان يخرجوا زكاة اموالهم ، ويعطوها للفقراء والمحتاجين ، لا كصدقة تذلل كرامة الفقير وتطعن كبريائه ، بل كحق له مفروض ، ونصيب له معلوم .

وبذلك كانت فريضة الزكاة ركيزة اشتراكية ضخمة للمجتمع الاسلامي ، إذ انها اقامت التوازن الاقتصادي بين الطبقات ، وهي تشبه الضريبة المفروضة في عصرنا الحديث على رأس المال مع فارق واحد هو ان الضريبة الطوعية « الزكاة » كانت اشمل من الضريبة الجبرية على رأس المال ، فهذه تتناول الرأسمال فقط ، اما تلك فتتناول الحلى والجواهر ، والمقارات وكل ما يمكن ان يمتلكه الانسان .

ان المال في نظر الاشتراكية ملك الدولة . اما في نظر الاسلام فهو ملك الله ، يتصرف به الانسان في حدود المصلحة العامة أولاً ثم صالحه الخاصة ثانياً ، فان اساء التصرف بالبخل او التبذير او سوء الاستعمال ؛ اوجب الاسلام على الدولة مصادرة

المال واعادة توزيع الثروة العامة حسب المقتضيات والاحوال .

ولم يحرم الاسلام الملكية الخاصة الا لانه وضع من ناحية ثانية ضوابط لها ،
تكفل بقاء التوازن الاقتصادي قائماً .

وهذه الضوابط هي : الزكاة ، والوقف ، وقانون الوراثة ، وتحريم الاسراف والتبذير
والفاثدة والربا ، ومبدأ المصالح المرسلة ، ومبدأ شيوع الموارد العامة ، ومبدأ
تحريم الترف والاسراف ومبدأ تحريم الكنز .

تشابه نظام الوقف والنظام الاشتراكي :

ان نظام الوقف يعني ابقاء عين الارض محبوسة على الجهة المعنية لها الى قيام
الساعة ، فلا يسمح تصرف ما ، اما غلتها فتتفق في الوجوه التي حددت لها ، من
وجوه الخير الموجودة او التي ستوجد . وهذا يعني ان الفقه الاسلامي سمح بان
يحبس اصل الارض ، وان تبذل ثارها للمستحقين . وهذا ما توسع الشيوعيون في
تطبيقه وتنفيذه ، فاصبحت الارض ، كلها ملكاً عاماً لا يتناولها بيع ولا إرث ،
واصبح الشعب كله مستحقاً فيها .

نظام الوراثة :

اما الارث ، فهو نظام استطاع به الاسلام ان يحطم الرساميل ، ويفتت
الملكية الواسعة ويحزى التركة ارباعاً واثاناً واثلاثاً ، وقد رأى حزب العمال
الانكليزي في برنامجه الاشتراكي ان يتجه بالمواريث هذه الوجهة ، اذ ان الزكاة
هناك واللقاب ، من نصيب الابن الاكبر وحده ، لتبقى الثروات على ضخامتها
وليبقى للاسر الاتوقراطية دعائمها المادية التي تعزز بها وتشمخ .

لكن اغنياء المساكين . مع الاسف ، كثيراً ما يختالون على احكام دينهم باجراءات مصطنعة للفرار من تطبيقها ، فتسارة يحرمون البنات ، وقارة يفضاون وارثاً على وارث ، وما الاثر عقود البيع الصوري التي تنجو بها الملكيات الكبرى من التفتت والتوزيع العادل ، رغم انه أثر عن الرسول العربي العظيم انه قال : « الاضرار في الوصية من الكبائر » ثم تلا قوله تعالى : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدن فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » وما الحدود التي اشار اليها الله العلي الاعلى في الآية الكريمة الا انصبة الموارث ، كما وزعها على المستحقين في الآية الكريمة : « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين .. الخ »

قد يقال ان الاشتراكية تنكر مبدأ التوريث ولا تكاد تقره الا في توافه المتاع وحببتها في ذلك ان الميراث ينافي العدالة ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، وينقل الثروة لمن لا يستحقها ... لانه لم يجنحها بنفسه ، ولم يكسبها بعمله .

ولكننا نرد على ذلك ان نظام التوريث في الاسلام له ضوابطه ايضاً التي تجنب المجتمع مثل تلك المحاذير التي يلمح اليها المعارضون . فالاسلام حين حدد لكل وارث حظه من التركة ، رضع من القوانين ما يحول دون سوء استعمال هذا النصيب الموروث ، فسد باب الحرام في المجتمع كيلا يمكن انفاق المال في الحرام ، وخذ من نزوات الفرد ، فاذا جنح وتجاوز الحدود الى التبذير والاتلاف ، امكن الحجز عليه الى ان يعرد عن ضلاله .

الاسلام والربا :

قال تعالى : « احل الله البيع وحرم الربا » وهذا يعني الات جزاء في نظر الاسلام الا على الجهد ، وربما ان رأس المال في ذاته ليس جهداً فهو لا يربح بذاته ، انما

طريقة الربح الوحيدة هي العمل ، فلا يجوز اذن ان يكون وجود المال عند صاحبه وسيلة لزيادة المال ، باضافة فائدة اليه عند اقتراضه .

ان هذا المبدأ الأساسي في الاسلام يحول دون تضاعف المال بذاته كما يقع في النظام الرأسمالي ، ويحول دون تضخم الثروات على حساب حاجة الافراد ، واضطرارهم للاستدانة بالربا ، كما يمنع سبباً رئيسياً من اسباب الاستعمار والحروب الدولية ، ويعطي العمل قيمة في مجال الانتاج . ويحقق العدالة بين الجهد الحقيقي والجزاء على الجهد . وينع ان ينال القاعدون الكسالى جزاء ما يستحقونه ، وهم ينالونه في النظام الرأسمالي بمجرد توظيف اموالهم في المصارف وغيرها ، فيضمنون الربح الحرام وهم قابعون ، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخم ، وتخل بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي .

الاسلام والاحتكار :

ان المحتكرين في العالم يلتقفون - كما قال احد الكتاب - السحب الهامية فيبيعونها للناس قطرة قطرة بالسعر الذي يشاءون ، ويستولون على خيرات الارض ثم يوزعونها على الناس ذرة ذرة كما يشتهون .

فالاحتكار يخلق قوة طاغية في يد المحتكر لا يستمدّها من الجودة والاتقان وحسن الخدمة وكفايتها ، وانما يستمدّها من وجود الامتياز في يده او من احتكاره للسلعة في السوق ، وهذه القوة الطاغية تستخدم دائماً ضد مصلحة المستهلكين - اي ضد مصلحة الجماعة - فالمحتكر ابدأ منّا للخير ، معتد اثم ، مضيق لفضل الله على الناس يقول له الله يوم القيامة « اليوم امنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يدك » .

لذلك حرم الاسلام الاحتكار ، وندّد رسول الله الكريم بالمحتكر فقال عليه السلام

« لا يحتكر الا خايطى » « من احتكر طعاما اربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه »

لقد حمل الاسلام على المطففين في الكيل فقال تعالى « ويل للمطففين » فماذا يكون موقفه من المحتكرين الذين يريدون ان يسلبوا الشعوب كل شيء ... دون ان يعطوها شيئا ??

واذا كان الاسلام قد غضب لخبه يسترقها الطمع وشره الانسان من كفة ميزان ، او جوف مكيال ، فكهم يكون غضبه مستطيراً ، وعقابه شديداً لأولئك الذين يحتكرون خيرات الارض ، ويأكلون حقوق الشعوب .

الاسلام ومبدأ المصالح المرسلة – اي المصالح العامة :

لقد خول الاسلام للدولة ، ان تأخذ من اموال الاغنياء ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للانفاق على مصالح المسلمين العامة ، وما تتطلبه رعاية المجتمع والوطن من نفقات قد تعجز عن سدها الموارد العادية للدولة ، وما تأخذ الدولة في هذه الحالة ليس من الربح كما قد يتبادر الى الذهن ، ولا هو ضريبة ، او حق كالزكاة . وفي هذا المبدأ كما يبدو تقييد لحق الملكية الفردية ، وتحديد يجعله دائماً خاضعاً لحاجات الدولة العامة ، اي لحاجات الجماعة ، وخاضعاً لسلطة الدولة بلا قيد الا قيد الحاجة الاجتماعية ، وفي ظله تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادي ، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانتزاع النصة من الملكية الفردية دون تعويض او رد ، لتنفق في المصالح العامة للجماعة .

الاسلام ومبدأ شيوع الموارد العامة :

وهو ما يسمى بلغة العصر تأميم المرافق العامة . قياساً على شيوع الماء والكلأ

والنور التي نص عليها الحديث الشريف بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة ، وبوصفها ضرورات حياتية يجب ان تظل مشاعة بين الناس . وقد رتب المذهب المالكي على هذا شيوع الركاز فلا يؤول الى ملكية خاصة... «فليست في نظر المالكية المعادن والسوائل في محالها - اي مناجمها - من الاموال المباحة حتى يملكها من وجدها واستولى عليها . وانما هي ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على ارضها لانها منها وثرة من ثراتها ، ولكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها فلا تملك بامتلاكها » .

ولا ريب ان رد الملكية العامة في هذه المرافق للجماعة فيه قضاء على سبب هام من اسباب فقدان التوازن الاقتصادي في المجتمع ، لان هذه الموارد تمثل القسم الاكبر من الثروة العامة تملكه في النظام الرأسمالي شركات او افراد ، وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة في المجتمع ، كما تصبح سبباً من اسباب المنازعات الدولية ومبررات الطغيان والعدوان ، وأساليب الاستعمار .

الاسلام ومبدأ تحريم الترف والاسراف :

ليس الاسلام دين تقشف وشظف وحرمان ، ولكنه دين يبيح لمعتقيه ان ينعموا بالحياة ويستمتعوا بطيباتها « كلوا من طيبات ما رزقناكم » « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »

غير ان ما ينكره الاسلام على معتقيه ، تعديهم حدود الاعتدال ، وانغماسهم في الترف ، لما يورثه الترف من فساد . وتعفن في كيان الفرد وكيان المجتمع ، فلقد حدثنا القرآن الكريم ان المترفين كانوا عبر التاريخ ، علة انهيار المجتمعات ، وتقهقر الشعوب وانحلالها :

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً » .

ان الترف الذي تفرق فيه طبقة ، يقابله بالضرورة حرمان ، تعاني شظفه طبقة اخرى ، لان المترفين يمتصون دماء الجماهير ، ويستغلون جهودها ، ويتصرفون بخيراتهم ، ليرضوا شهواتهم ويحققوا رغباتهم ، ولا شك ان مثل هذا السلوك الاجتماعي ، يفقد الجماعة روح السلام والاخاء لانه يشير احقاد النفوس ، ويوقظ حزازات الطبقية ، فضلا عما يخلفه هذا الوضع من آثام اجتماعية ، هي ابنة الشهوات القدرة التي يتفانى في سبيلها المترفون .

من هنا كانت حكمة الاسلام في تحريم التبذير والاسراف والترف « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » وذلك حفظاً للمجتمع من التفسخ ، والترهل الروحي والميوعة الخلقية .

الاسلام ومبدأ الكنز :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ذلك ان حبس المال عن التداول ، وكنزه في الصناديق والخزائن ، يؤدي الى اختلال التوازن المالي والتجاري والاقتصادي ، وبالتالي الى اختلال التوازن الاجتماعي .

وهذا يعني ان الكنز ليس سلوكاً شخصياً مؤاخذاً عليه فحسب . بل جريمة اجتماعية ، يجب على الدولة ان تستأصلها بما توضع من تشاريع واقية ، فحبس المال ان كان سببه البخل والتقتير فقد ندد الله سبحانه بالبخل والمقتيرين « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وان كان سببه التهرب من الانفاق في سبيل الله ... اي في سبيل حماية المجتمع ومصالحه ، فأحذر به ان يحارب ويعاقب .

قد يقول قائل ... ان ما تؤدي زكاته من مال ليس بكنز لان تحريم الكنز في

مثل هذه الحال ، افتتات على الحرية الشخصية ، وغريزة الادخار .

وجوابنا على ذلك حديث الرسول الاعظم حازم جازم ، يقول عليه الصلاة والسلام فيه :

« من جمع ديناراً او درهماً او تبراً او فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه في مسيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة » .

هذه صورة موجزة عن نظام الاسلام الاقتصادي ، تظهر فيها الخطوط الاشتراكية التي اراد الاسلام لها ان تتوضح ، وان تستقر . ولنتقل الآن الى الناحية الاجتماعية ، التي اراد الاسلام بها ان يهدم حواجز الطبقات ؛ وان يقيم اركان المجتمع الفاضل .

يتغنى عصرنا الحاضر ، وتتغنى معه النظم الاجتماعية ، والاشتراكية منها بوجه خاص ، بما حققته للمواطن من ضمانات ، وللعامل من حماية .

فإلى اي حد قدم الاسلام هذه الضمانات ، والى اي حد تجدد الطبقة الكادحة؟!

ان الاحاديث الشريفة التي رويت عن الرسول الاعظم تشير الى ان احب الطبقات عند الله ، الطبقة الكادحة : فلقد قال عليه السلام : « ما كسب رجل كسباً اطيب من عمل يده » .

وروي انه ذكر للرسول رجل كثير العبادة لا يعمل . فقال : « من يقوم به . قالوا اخوه : قال اخوه اعبد منه . وقال ان الله يحب العبد المحترف » .

وعن انس قال : كنا مع النبي في سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال : فنزلنا منزلاً في يوم حار اكثراً ظلاً صاحب الكساء . فمنا من يتقي الشمس بيده . قال فسقط الصوام إعياءاً ، وقام المفطرون فضربوا الابنية ، وسقوا الركاب ، فقال رسول الله : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » .

ومر النبي ﷺ على رجل فرأى أصحابه من جلد أحدهم ونشاطه في
الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه : قالوا : يا رسول الله لو كان هذا
في سبيل الله ؟ فقال الرسول : إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل
الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان
خرج يسعى على نفسه فيعففها فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى رياءً ومفاخرة فهو
في سبيل الشيطان .

كما ورد عنه قوله : من أمسى كالأمن عمل يده أمسى مغفوراً له .

فأي تمجيد للعمل يفوق هذا التمجيد ؟ ألا يوازي هذا على الأقل ، التكريم
الذي تريده الاشتراكية للعمل والعمال ؟

أما العامل فقد حماه الاسلام واوصى بالمحافظة على حقه ، وحذر من انتقاصه
والافتئات عليه .

فأنت في نظر الاسلام ، حين تحفظ للعامل حقه ، تؤدي لله عبادة .. عبادة
ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد شكلها ، وإنما قوامها صيانة
الحقوق والعمل بروح الدين ، واوامر الله .

وبعد... ما هو موقف الاسلام من مبدأ الضمان الاجتماعي الذي يشكل ركيزة
من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟؟

واليكم قرائي الاعزاء بعض الامثلة التي تدل بوضوح على تعلق الاسلام بمبدأ
الضمان الجماعي والعمل على تحقيقه .

● سيق الى عمر بن الخطاب في عام الرمادة - وهو عام مجاعة - اعرابي اتهم
بالسرقة ، ولما سئل الاعرابي عن التهمة اعترف بان الدافع الذي دفعه اليها قاهر

غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجني يديه ، وعبثاً حاول إيجاد عمل لنفسه يقيه واطفاله شر الجوع .

فمال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم : فأجمعوا على تطبيق الحد .

ولكن عمراً ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، أدرك بثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الاساسية ، ووجوب تأمينها للعمل للجميع ، واعتبر إغفالها لمثل هذا الاعرابي الفقير ، تقصيراً في القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن . فالتفت الى الاعرابي ، وفي عينيه دمعة أكبر من السماح وانبل ، وقال له :

اذهب يا اخا العرب . ولا تعد لمثلها .

ثم التفت الى اصحابه قائلاً ما معناه :

« اجروا عليه من بيت المال الى ان يجد عملاً » .

اما قصة هذا الخليفة العظيم مع الارملة العجوز ، فلا احد يجهمها او يجهل دلالتها الاجتماعية ، وكذلك قصته مع ذلك الشيخ الذمي الذي رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذراً : « يا شيخ . . استخدمناك شاباً وضيعناك شيخاً » ثم امر ان يرتب له من بيت المال ما يكفيه في شيخوخته ، ويجنبه ذل السؤال .

ومن هذه الامثلة يتضح ان الاسلام عرف انواع الضمان : التي شاعت في النظم الاشتراكية الحديثة ، كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

اما الاسلام السياسي فقد اعطى العالم كله امثال رائعة في النبل والتسامي ، والاخوة ، والمساواة والدفاع عن الحريات ، وحب السلام والديمقراطية .

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

« انما المزمعون اخوة »

« وكونوا عباد الله اخوانا »

« لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى »

« الانسان اخو الانسان احب ام كره »

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً »

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه »

بمثل هذه الضمانات كفل الاسلام للفرد طمأنينته وحرية وحرماته ، فان اعتدى عليها معتد فالقصاص نصيبه ، أياً كان المعتدي ، لأن الاسلام لم يميز في قانونه ، ولا في واقعه التاريخي بين خليفة او امير ، وبين فرد من عامة الناس . فمحمد بن عبد الله كان يُقيد من نفسه ، وعمر بن الخطاب يسلط ذلك المصري المظلوم ، وهو ابن الشعب ، فيضرب حاكم مصر وابن الاكرمين . وعلى بن ابي طالب يخاصم نصرانياً سرق درعه الى قاضيه شريح ، فيحكم القاضي ضد الخليفة لان الخليفة لا يملك بينة على السارق .

فيبتسم الخليفة ويطيع .

بين الاشتراكية والقومية

• ان الهدف الاساسي لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء تدريجياً ، او بطريق العنف ، على نظام الملكية الخاصة ، وتنظيمها ، ثم اغاء الانتاج واختيار موارده وطرق توزيعه .

• اما القومية فهي مجموعة مندجة من الاشخاص ، يتفاعلون بنفسية واحدة ، ويندمجون في صفات وخصائص واحدة ؛ ويخضعون لمواطف وتيارات واحدة ، ويعملون من اجل هدف واحد .

• لا تناقض - الآن - بين القومية العربية والاشتراكية وليست الثانية هدفاً للاولى ، لان القومية العربية متحركة وليست جامدة متطورة وليست متأخرة ، وهي بالتالي واقعية في نهجها السياسي ، ومنطقية في كفاحها الاجتماعي . وطبيعة الاحداث اليوم ، والظروف الدولية ؛ تحتم عليها ان تنوسل بالاشتراكية من اجل رخاء العرب واستقلالهم .

موضوع الاشتراكية والقومية موضوع شائك لكثرة ما خاض به الباحثون وتعددت فيه آراؤهم ، ولكننا سنحاول قدر المستطاع توضيح نقطة هامة جداً تتمثل بهذا السؤال : هل هناك تناقض بين الاشتراكية والقومية؟.. او بكلمة اخرى هل يمكن فصل الاشتراكية عن القومية او القومية عن الاشتراكية ؟

تعريف الاشتراكية :

يمكننا ان نفسر الاشتراكية بوجه عام على انها نظريات او حركات اجتماعية وبالتالي سياسية واقتصادية ، تهدف الى تنظيم مجتمع يقوم على صالح الغالبية من الشعب ، وذلك عن طريق الملكية الجماعية والرقابة الجماعية لعناصر الانتاج والتوزيع . فهدف الاشتراكية اذاً هو تحويل الملكية الخاصة لعناصر الانتاج (كالمصانع والمنشآت الكبيرة والاراضي الزراعية والمناجم ونحوها) الى ملكية جماعية ، وتنظيم الانتاج القومي وفقاً لخطة مركزية مرسومة لتحقيق الصالح العام لا صالح طبقات معينة ، وهي تهدف الى ازالة جميع المساوئ الاجتماعية والسياسية التي تمخض عنها النظام الرأسمالي الحر ، وترى ان هدفها الاول هو ازالة هذا النظام والقضاء على ما يترتب عليه ، من تمسك الافراد بقيم مادية ضارة بالمجتمع وبالصالح العام .

انظمة اشتراكية اخرى :

هذه هي الاشتراكية العلمية غير ان هناك انظمة اخرى اتخذت من الاشتراكية شكلاً لها ، على حين انها ليست في الواقع ، الا اتجاهات اصلاحية تقدمياً يمثل خطوة الى الامام نحو الهدف الاسمي .

نرى ان الكثيرين من الكتاب المتأثرين بالفلسفة الماركسية يرون ان سبيل اصلاح الاجتماعي هذه لا تخرج عن كونها مخدرات وقتية تؤخر الوصول الى الهدف

وخصوصاً اذا كانت الطبقة الرأسمالية الحاكمة هي التي تحتضن هذه الاصلاحات وتقوم بها . وقد اثار هذا الاختلاف في وجهات النظر جدلاً ساعداً على مر السنين بين مدارس الاشتراكية المختلفة . ففريق يؤيد الاصلاح التدريجي وآخر يؤيد اتباع وسيلة فعالة تقلب النظام الرأسمالي من اساسه وتمحو معالم الطبقة الحاكمة وطائفة الملاكين على اختلاف انواعهم .

اهداف الاشتراكية

اما وقد عرفنا ان للاشتراكية تفسيرات متعددة وطرقاً مختلفة في تحقيق اهدافها فانه يمكننا ان نجعل تلك الاهداف في قائمة ترشدنا الى الاسس العامة التي تقوم عليها المذاهب الاشتراكية ؛ والاهداف التي تتضمنها القائمة المذكورة لا تعبر عن برنامج حزب اشتراكي معين ؛ كما انها لا تشمل النواحي التفصيلية للمذاهب المتبعة . وانما هي قائمة عامة تتضمن رمزا او شعاراً عاماً لمفهوم المجتمع الاشتراكي وتتلخص هذه القائمة بما يلي :

اولاً - ازالة طبقة الرأسماليين ونفوذهم . (٢) تخضية الجماعة فوق شخصية الافراد - (٣) تغيير نظام الملكية الخاصة بنظام ملكية جماعية - (٤) رفع مستوى المعيشة لعامة الشعب من جميع الوجوه - (٥) ازالة نظام الملكية الزراعية والقضاء على الاقطاع - (٦) كفالة الفرص المتكافئة للجميع دون تمييز طبقي - (٧) هيمنة النظام المركزي على الانتاج وادارته طبقاً لخطة مرسومة تحقق الرفاهية للجميع على السواء .

ويتضح من هذه القائمة ان الهدف الاساسي العام لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء اما تدريجياً واما بطريق العنف على نظام الملكية الخاصة ثم تنظيم الانتاج طبقاً لخطة مركزية مرسومة ، باعتبار ان الدولة تكون هي المهيمنة على عناصر الانتاج وعلى توزيع الناتج القومي على افراد الشعب .

الاشتراكية والمذاهب العنصرية :

وقبل ان ننتقل الى تعريف القومية ، يجب ان نشير الى ان بعض الباحثين يقعون في خطأ جسيم عندما يتوهمون النازية او الفاشية مذهباً من المذاهب الاشتراكية ، بمجرد ان النظم الفاشية والنازية قد غطيت بتسمية هي الاشتراكية القومية . فكلية نازية ليست الا اختصاراً لعبارة « ناسيونال سوزيالسمس » الالمانية اي الاشتراكية القومية . ان الفرق شاسع بين الاشتراكية والفاشية او النازية ؛ وهو فرق في العقيدة والاسلوب والفلسفة ونظام الدولة ، بل يمكن القول ان العداء مستحكم اصلاً بين النظامين منذ نقطة البدء ، فالفاشية تمثل دولة تعبئية تسخر فيها كل الجهود والعوامل والامكانيات لصالح الدولة . وتختصرها كلمة موسوليني : (كل شيء هو الدولة ولا شيء خارج الدولة ولا شيء ضد الدولة) وهي تعتمد على منطق واحد هو القوة الشخصية التي هي مصدر كل قوة اخرى ؛ اي انها تعتمد على مبدأ الزعيم الديكتاتوري وتأليهه ، فليس الزعيم هو الذي يظهر في الملأ فتنقذ البلاد من خطر داهم ، ولكن الذي يفرض ارادته وسلطته على الامة بصورة اسوأ من تلك التي عرفتھا الامم ايام الابطرة والقيصرة المستبدین . اما النازية فتركز على اسطورة الجنس الآري المتميز والمؤهل لاستعباد الشعوب الاخرى ؛ لذلك يهمننا ان نشير الى ان تسمية النازية مثلاً بالاشتراكية القومية ، ليست الا من قبيل الدجل السياسي والعقائدي وتضليل الناس .

تعريف القومية :

ان اكثر الصيغ الموضوعة لتعريف القومية تثبت ان التفكير النظري عاجز عن التفرد بمعالجة مركبها ؛ وهكذا رأينا المفكر الاسباني (بيارجال) يجهد منذ ١٨٧٦ للاحاق بمبدأ القوميات بالمبدأ الاتحادی ؛ وجعله رديفاً له . وذلك بتحديد القومية

بواسطة خصائص ثابتة فهو يقول : اذا كان يمكن لشعب ان يرضى بما يأباه بالقرينة فيدين عنوة لشعب آخر ، ويصبح تابعاً له ؛ واذا كان يكفيه ليرضى بهذا المصير ان يحترم نوع حياته ، ويعطي مساواة في الفرص والحقوق مع المحتلين الغالبين . وكذلك اذا استطاع ان يعيش اسوة باميركا الشمالية في سلام وانسجام مع الغاصبين ، وذلك دون اي اندماج طبقي بالمحتل الذي تفصله عنه عوامل الجنس ، واللغة ، والدين ، والشرائع ، فمن البدهي عندئذ ان تكون قاعدة القوميات ومقياسها غير منحصرين لا في وحدة القرائن ، ولا في وحدة الدين ، ولا في وحدة اللغة ولا في وحدة الجنس . اما (اورياخ) فيمتنع عن تعريف القومية الا بصفاتها حدثاً نفسياً اجتماعياً . في حين يرى (كيلتي) انها ليست الا شعوراً يضاهي الشعور الديني ويمكن ان يارسها الانسان طائعاً او مختاراً .

وقد عرفت دائرة المعارف البريطانية القومية فقالت : (القومية مفهوم يعتوره بعض الغموض ، ولكنه يستعمل في معناه الدقيق في الحقوق الامة ، للدلالة على صفة حالة ثابتة ؛ تعين التبعية في داخل الامة او الدولة بمعنى اكثر شمولاً ؛ يستعمل في المناقشات السياسية والاجاث للدلالة على مجموعة مندمجة موحدة من الاشخاص الذين يحون فيما بينهم من وحدة الجنس والارض واللغة وسواها) .

اما (رمزي موير) فلا يفرق بين الوطن والامة ، ولا يرى في القومية الا دلالة اجمالية على صفات الوطن وخصائصه ، ويعتبر القومية مجموعة من الناس الذين يشعرون بروابط طبيعية تجمعهم ؛ وببول طبيعية تبلغ من القوة ومن الحقيقة انها تتيح لهم الحياة المشتركة وتجعلها ممكنة بل مستحبة ، وتجعلهم لا يرضون ان تفرض عليهم العبودية للشعوب الاخرى .

واما (شارل ديمورغان) فيرى ان لفظة القومية تظل غامضة المدلول ، فلا تدل الا على مناهج غير دقيقة ، والقواعد التي تقوم عليها مزعومة غير ثابتة ، وذلك ناتج عن كثرة العوامل التي تحاول ان تثبت عليها مرتكزاتها .

وهناك من يصنف القومية في قوميتين : قومية انسانية وقومية لا انسانية والمثل على القومية الا انسانية هو الاستعمار . فالاستعمار شعور قومي «لا انساني» وسبب

لجميع الثورات القائمة بين الامم .

و خلاصة القول ان اجماع العلماء في الفقه قائم على ان عناصر القومية تهني : الجنس والارض واللغة والدين ... ولكننا لا نريد ان نسترسل في النظريات التي ساقها علماء الغرب حول هذا الموضوع بل نود ان ننتقل الى قول كلمة القومية العربية .

القومية العربية :

من الصعب جداً تحديد اركان القومية ؛ فاللغة وحدها لا تصح ان تكون ركناً من اركانها ، وكذلك الدين لا يصلح وحده ان يكون ركناً من اركانها ، والوحدة الجغرافية والتاريخية والمصالح المشتركة لا تصلح كل منها منفردة في ان تكون ركناً من اركان القومية . فهم تتكون القومية اذا ؟

الحقيقة هي ان القومية لا تحدد بأي عامل من هذه العوامل ، وانما تحدد اولاً واخراً بشعور مجموعة من الناس انهم ابناء قومية واحدة . والدكتور الرزاز يرى انه لم يجتمع لامة من اسس القومية مثل ما اجتمع للامة العربية ؛ واول هذه الاسس وحدة الارض .. هذه الارض التي تمتد من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب قطعة واحدة لها جغرافية واحدة ، تتمثل في كل قطر من اقطارها الجزاة ؛ وتتلخص في احتوائها جميعاً على صحراء وجبل وسهل .

اما اللغة فواحدة منذ اربعة عشر قرناً وهي ليست ركناً بسيطاً من اركان القومية العربية لانها اشركت العرب جميعاً في حضارة واحدة ، ونتاج عقلي واحد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

اما الركن الثالث الذي تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ الواحد .. هذا التاريخ الذي حمل صورة واحدة ومر على ادوار واحدة رصين هذا الوطن بصيغة واحدة .

واما الركن الرابع فهو وحدة المصالح والمشاكل ، غير ان هذا كله في رأي الدكتور الرزاز لا يكفي وحده لاجل خلق قومية واحدة ، وانما الذي يكفي حقاً هو ان هذا كله قد انتج شعوراً عاماً لدى سكان الوطن العربي كله بأنهم ينتمون الى قومية واحدة . وهذا الشعور لا يرجع في الاصل الى ركن واحد من هذه الاركان التي ذكرناها ، وانما يرجع اليها جميعاً ويعلو عليها جميعاً ... يعلو عليها لانه هو الاصل اما هي فاسباب وعوامل ؛ ولو اجتمعت كل هذه العوامل معاً ولم تنتج هذا الشعور بالقومية الواحدة ؛ لما نتجت قومية عربية واحدة . وهذا الشعور ينتج باللاوعي اكثر من الوعي ؛ لأن عوامل واحدة هي التي سيطرت على ماضينا وعلى حضارتنا وعلى تراثنا ، وهي التي تشكل حاضرتنا ، ولاننا نجابه نفس المشاكل بنفس العقلية ونصادف نفس الامراض ، وتسيرنا نفس التيارات .

ولا شك ان هذه القرون الطويلة التي عاشها الوطن العربي — كمجموعة — تسيطر عليه نفس الحضارة ونفس العقلية ، ونفس المعتقدات ونفس الخرافات ، ونفس العادات ونفس الآلام ونفس الآمال ، لم تمض دون ان تترك آثارها الواحدة كذلك ، في نفس الجيل القائم اليوم في البلاد العربية .

واما الركن الخامس فهو الدين ، ولا نريد ان نقلل من اهمية هذا الركن ، فعلى الرغم من ان الدين لا يمكن ان يحدد القوميات ؛ خصوصاً ونحن نعلم ان الدول التي تدين بالمذهب البروتستانتي كثيرة ، وتمثل قوميات مختلفة اشد الاختلاف ، ونعلم ان الدول التي تدين بالمذهب الكاثوليكي كثيرة كذلك وتمثل قوميات مختلفة ، وان الاسلام ايضاً يضم قوميات مختلفة اشد الاختلاف ، بينها : الهندي والباكستاني والتركي والایراني والعربي والاندونيسي ، الا ان الذي لا شك فيه ، هو ان الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية طوال ثلاثة عشر قرناً ، كما صبغ تقاليدنا وعاداتنا ، واساطيرنا ومعتقداتنا ، وحياتنا اليومية المعيشية .

فالاسلام في البلاد العربية لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخاً وحضارة

وحياة عقلية ، اثيرت في حياة سكان هذا الوطن على اختلاف اديانهم ، ووحدتهم
مسلمين ومسيحيين في اطار فكري ومعيشي واحد .

هل تناقض القومية الاشتراكية ؟

نستطيع دون تردد ، ان نجيب على هذا السؤال بكلمة لا ، فالقومية تحقيق لميل
طبيعي في البشر يدفعهم للتعاون ، والاشتراكية ميل من البشر لرفع مستواهم
وتحسين ظروفهم الحياتية والمساواة فيما بينهم في الفرص .

ولا يطعن في القومية انها رافقت النظام الرأسمالي ، فأدت الى قيام الحروب
لان هذه القومية قادرة على ان تعايش النظام الاشتراكي ، وتسير في ركابه ، فتمنع
الحروب وتنمي روح التعاون .

واعظم ما يمكن ان يستشهد به من الواقع ، مثل الاتحاد السوفياتي نفسه ، الذي
هو اقوى مظهر حتى اليوم لتعاليم كارل ماركس ، فهذا الاتحاد لم يقض على
القوميات التي انضمت اليه ، ولم يلغ الحدود التي كانت تحدد بلاد التركستان او
الارمن ، بل اعترف بها وقواها وانشأ في كل منها دويلة قائمة بذاتها ، ولكنه الغى
طغيان القومية الروسية عليها ، القومية التي كانت سائدة في العصر القيصري ، أي
انه أراد تحرير القوميات من الاستعباد ، ولكنه لم يرم الى إلغاء القوميات نفسها ،
بل عمل على تنشيطها ، وحياء تراثها ورعاية فتوتها القومية . ولقد حدثنا
صديق زار الاتحاد السوفياتي ، وتجول في جمهورياته المختلفة فأكد لنا انه لمس لمس
اليد الطابع الخاص المميز لكل قومية في نطاق الاتحاد الواسع .

فاذربيجان مثلا او تركستان او اوزبكستان او ارمينيا ، تتمتع كل منها
باستقلالها الخاص ، ولها عاداتها وتقاليدها ولغتها القومية الخاصة بها ، ولا هم للدولة
الا تطوير هذه العادات وتلك التقاليد .

الاشتراكية القومية :

اما في البلاد العربية ، فقد دار جدل كبير وحمي الصراع كثيراً حول ما اذا كانت الاشتراكية يجب ان تواكب المد القومي وتندمج فيه ، او ان تنفصل عنه كمرحلة لاحقة نرقى اليها بعد ان نحقق وحدتنا وننتحرر . فهناك فئة تقول بان الاشتراكية يجب الا تكون في هذه المرحلة التاريخية التي نجتازها هما من هموم نضالنا ، لان هذا النضال يجب ان يتركز بادىء ذي بدء في تحقيق الوحدة القومية ، حتى اذا ما تحققت هذه الوحدة تسنى لنا طرد الاستعمار واستئصال نفوذه وتصفية قواعده . ومن ثم .. نتفرغ لمعالجة امراضنا الاجتماعية وتنظيم حياتنا الاقتصادية تنظيمًا تفرضه علينا ضرورات حياتنا الجديدة ومتطلبات اوضاعنا .

الا ان هذه الفئة حين تقول هذا القول تنسى كثيراً من الحقائق ، فهي تنسى اولاً ان الوحدة لا يمكن ان تتحقق الا اذا طردنا الاستعمار ، فما دامت للاستعمار جذور في ارضنا ، وما دام للاستعمار سلطان على بلادنا ، فانه لا يمكن الا ان يكون عدو وحدتنا ، وقد تجلّت هذه الحقيقة في السنوات الاخيرة ؛ وخصوصاً عندما توحدت مصر وسوريا في جمهورية واحدة . فلقد جن جنون الاستعمار ؛ ونشط عملاؤه نشاطاً عجيباً غير عادي ، واخذت دوائره تعمل ما وسعتها الحيلة للحؤول دون خطوات توحيدية اخرى ؛ كما تعمل ما وسعها العمل لمحاربة الجمهورية الفتية الناشئة ؛ ومحاربة افشائها كمثل مشجع ، وقدوة يجب ان تشخص اليها ابصار الاحرار في دنيا العرب . كما تنسى هذه الفئة ثانياً ان التحرر هو طريق الوحدة ، وان القومية العربية ليست درجة في سلم الارتقاء والتطور ، وانه ليس بينها وبين الانسانية فاصل اساسي وتفاوت في الدرجة والقيمة ، بل انها هي تربة الانسانية ، والمجال الحي لاختصاصها ، وان الانسانية ليست وضعاً اجتماعياً او سياسياً ، بل روح واتجاه ومثل تنبث في تكوين الشعوب والامم ، وتلون حضارتها وتوجه سلوكها واخلاقها ، وهي مرافقة للقومية وليست لاحقة لها .

وهناك تيار قومي آخر هو الأقوى والاسم ؛ يؤمن ان القضايا الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن ان تفرغ من مضمون القومية .

فالقومية العربية بمضمونها الحديث هي مزيج متفاعل من هموم الانسان العربي كلها ، فالعربي بحاجة الى الحرية بحاجة الى الوحدة ، بحاجة الى العدالة الاجتماعية ، بحاجة الى تحرير اقتصاده من نفوذ الدخيل وسيطرة الغريب ، بحاجة الى تنمية موارده ، واستخلاص خيراته وكنوزه من ايدي غاصبيها وسالبيها ، وهو لا يستطيع ان يفاضل بين هذه الحاجات كلها ، فهي مترابطة متفاعلة ، ولا يستطيع ان يحجز فيما بينها فهي متواصلة متداخلة متشابكة ؛ ولا يستطيع ان يعتبرها مراحل يجب ان يجتازها مرحلة بعد مرحلة ؛ لانها في الواقع ليست الا ملامح متعددة لوجه واحد .

النضال القومي العربي والاشتراكية :

ان النضال في سبيل القومية العربية يعني في الوقت نفسه : نضالا في سبيل التحرر ، ونضالا في سبيل الوحدة ، ونضالا في سبيل الاشتراكية .

ان من يدعو الى القومية العربية ويبشر بها ، ويدعو الى محاربة العبودية والاستعمار والتجزئة والظلم الاجتماعي ، يبشر في الوقت نفسه ويدعو الى مقارعة الفقر والجهل والمرض ، والتفكك والانحراف والرجعية .

يبشر ويدعو الى الانسانية .. لان قوميتنا ومبررات وجودها تجعلنا لا نستطيع ان نتصور انها انا وجدت لتخاصم غيرها ؛ او لكي تثبت وجودها ازاء قوميات اخرى . او لكي تدعي التفوق او حق السيطرة على غيرها او لتدفع التهمة عن نفسها .

ان القومية العربية تلتقي مع النزعات الانسانية في انبل امانيتها .. وان ما يتوهمه

البعض نزعة غير انسانية تتمثل في كره العرب للاجنبي، ليست الا نتيجة حتمية
للمهود السوداء الطويلة التي عاشوها في ظل الاستعمار والكبت والعبودية .

لقد طغى الغرب وفرض على البلاد العربية التجزئة ؛ وحارب امانيتها القومية
محاربة لا هوادة فيها ولا رفق ، ولم يكتف بذلك بل اقام في قلب الارض العربية
دويلة مصطنعة زائفة، وراح يغذيها ويمدها بالايدي والمال والسلاح، ويدعمها سياسياً
وعسكرياً واقتصادياً، ويجرّسها عند كل مناسبة ويزين لها العدوان رامياً من وراء
ذلك الى ترميغ الكرامة العربية ، واذلال الاباء العربي وتمزيق الاخاء العربي والنيل
من القومية العربية .

وكان الغرب من قبل ان يقيم اسرائيل قد اذاق العرب الوان العذاب .. فاحتل
ارضهم واغتصب خيراتها وتنعم بثرواتها ، وحصر همه التمديني في اشاعة الفقر
والجهل والخوف .. لذلك كان طبيعياً ان تنشأ عند العربي عقدة يمكن ان تسمى
« عقدة الاجنبي » .

وكلما سنحت له الفرصة للشفاء من هذه العقدة، سارع الغرب الاستعماري الى
ترسيخها وتأكيد لها، فهو لا يفتأ ينبري للاماني العربية فيحاربها ويضطهدها ، ويعمل
ما وسعه العمل لاحباطها وخنقها والخيولة دون تجسدها وتحقيقها ؛ ولكن هذه
العقدة ليست شيئاً اصيلاً في الفطرة العربية ، بل الشيء الاصيل في هذه الفطرة هو
الحس الانساني والانفتاح السمع على العالم ، والشعور بان هناك رسالة يجب ان
يؤديها العربي لخير الانسان او ان يهم بأدائها مع الآخرين .

وكذلك فان الشيء الاصيل في هذه الفطرة هو الكره الشديد للذل والاستعباد
وعدم الاستكانة للطغيان .

لا يمكننا كباحثين ان نحدد للقومية العربية - كفكرة وشعور وحقيقة - يوماً نوضح فيه تاريخ تكوينها وصيرورتها عاملاً من اهم العوامل الفعالة في البلاد العربية؛ ولكننا نستطيع ان نلاحظ خلال الازمات التي مر بها الشعب العربي عبر تاريخه الطويل ان هذه القومية كانت اثرأ من الآثار الخالدة التي واكبت تطور هذا الشعب منذ طفولته الجاهلية حتى شبابه الاسلامي .. الى ان تعاقبت عليه فيما بعد شتى المحاولات الرامية الى تفتيته وتضييع معالمه . والتي كان يقوم بها الشعوبيون تارة ، والاعداء الخارجيون تارة اخرى .

ومن منا يمكنه ان ينكر ان هذه القومية بدت اكثر ما تكون وضوحاً وجلاءً في كافة العصور العربية ؛ وانها كانت في العصر الجاهلي وفجر الاسلام ، نوعاً من الصلات الوجدانية التي تربط بين سكان الجزيرة ، وتشد اطراف اليمن الى اطراف نجد ، وتربط بين الشواطيء التي تطل على المحيط الهندي ، وبين الشواطيء التي تطل على البحر الاحمر .

ومن خلال دراسة بسيطة لعادات العرب في هذه الجزيرة شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها نجد ان «العروبة» كانت تسم الجميع بميسمها الخاص ، فما هو منكر في الشمال منكر في الجنوب، وما هو متبع في الشرق متبع في الغرب، والتقاليد واحدة ، والعبادات واحدة ، والتكوينات النفسية للشعب واحدة ، والطابع الحياتي واحد ، والمفاهيم الاجتماعية واحدة ، ولعله من العجيب ان تكون الحدود بين نجد وتهامة مثلاً كافية لان تفرق بين النطق هنا وهناك، وان تكون «أل التعريف» مثلاً في احدى القبائل ، هي « الميم » في القبائل الاخرى ، من العجيب ان يتم حصول هذا الفرق في اللغة الواحدة ، وان يظهر جلياً واضحاً كلما تباعدت المسافة بين القبيلة والقبيلة؛ في حين انه لا يؤثر هذا نفسه على عروبة اي عربي في اي مكان من الجزيرة العربية .

ولعل متسائلاً يتسائل : علام كانت تثار الحروب بين القبيلة والقبيلة ؟ ولاي

شيء كانت تهدر الدماء بين قوم وقوم؟ ونحن قد عرفنا القومية بأنها شعور واحد
لجماعة واحدة من الناس . فأين هو ذلك الشعور ؟

والجواب على ذلك هو ان الحياة العربية في اطوارها الاولى كانت قبلية بحتة ،
ليس فيها اي لون تعاواني غير العنصرية ؛ وليس فيها اي رابط مدني ما خلا
«العائلية» وليس فيها اي شكل حضاري ما عدا «العشائرية» وهذه الصفات
المميزة للحياة العربية ، هي معان بدائية للقومية في المجتمعات الناشئة ، وهي نفسها
الدلائل الناصعة على وجود القومية العربية كرابطة بين العرب لا على انتفائها ،
وبالتالي فهي المراحل «الجبرية» الاضطرارية التي تمر بها القوميات في
تكوينها الاول .

لقد اختلف ظهور هذه القومية الى الوجود وطبعه حياة المجتمع العربي بطابع
ظاهر ، اختلفاً بيناً ، وسبب هذا الاختلاف هو ان العرب انطلقوا في اول
عهدهم ينقلون الى الدنيا قوميتهم العربية وعقيدتهم الاسلامية ، وكان الواجب
الغالب وهو «الاسلام» ابرز اثرأ في انطلاقهم . بل انه كان هو الدافع الاول
لهذا الانطلاق ، لذلك فقد انصبت كافة جهودهم على الدعوة الاسلامية . وبعبارة
اوضح ، يمكننا ان نقول ان العقيدة الاسلامية كانت هي الرباط الاوثق . والصلة
الاحكم ، والهدف الاسمى ، الذي يشترك العرب في التفرغ له وخدمته ورفع رايته
في كل مكان ، ويمكننا ان نقول ايضاً ان الدعوة الاسلامية استغرقت بل استنفذت
الطاقة العربية ، وكان من مفاخر هذه الطاقة ان حملت الاسلام الى جهات
الدنيا الاربع .

اما القومية فكانت بجانبه شمعة مضيئة ذهببت بنورها الضئيل ، انوار الشمس
الفياضة .

اما فيما بعد ذلك من العهود فقد استقر الاسلام في القلوب ، واخذ مكانه على
الارض ، واخذت جذوره الكبرى تتمدد في الاعماق ، وتنتشر هنا وهناك ووثق

علاقاته مع العقائد الاخرى ، ونظم مشكلاقيه معها ، واقام الحدود بينه وبين خصومه ، ووضع الاسس لاقامة مجتمع مثالي متعاون بناء .

ولقد اقيم - باسم الدين - هذا المجتمع فعلا ، وتقننت قوانينه ، وانتظمت شرائعه ، وتحددت حدوده ، واقيمت اركانه ، وبنيت جذرانه .

واطلت خلال فترة الراحة هذه ، العواطف والمشاعر الاخرى في صدور الناس : المسلمين وغير المسلمين ، وبرزت الى الوجود دعوات دينية واحزاب سياسية ، كانت في حقيقتها متنفسا طبيعيا لمطالب الشعب العربي القومية ، وكانت بعض هذه الاحزاب مغالية في تطرفها ، وذلك لانها برزت تحت مؤثرات بحتة ، كالشعبوية ، والخوارج ، والقرامطة ، والعلوية وغيرها ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت العروبة هي خط الدفاع الثاني بعد الاسلام في هذه الازمات .

مراحل تكوين القومية :

كل قومية من القوميات تتبلور ، وتأخذ طريقها في التكوين الفعلي ، وتبرز ملامحها الخاصة بعاملين اساسيين :

١ - العامل الايجابي : كتحمل اعباء رسالة ، او القيام بمهام حضارة ، او التمرس بعمل كوني ، تكون من آثاره ان تتغير بعض الصفات الاساسية لفريق من الناس ، او تتغير خلائقهم ، وان تتمحي طبقات خالصة من البشر وتبرز الى الوجود طبقات اخرى .

و «الاسلام» يمثل هذا العامل في تكوين القومية العربية .

٢ - العامل السلبي ، كانطفاء جذوة السلطة ، أو الهزيمة المؤثرة في واحد من الميادين الهامة في حياة الشعوب ، أو انكسار شوكة الشعب ، وانحداره من مستويات القيادة الى حضيض العبودية ، أو مكوثه تحت ظلال المحكام خارجة عن ارادته ، متنافية مع طبائعه ، مخالفة لقواعده واسسه . أو خضوعه

لعوامل القوة والتحكم والسيطرة لشعب آخر أو قوى أخرى .

وحملات الاستعمار التتريّة والمغوليّة ، والحملات الصليبيّة ، وسيطرة الدول الغربيّة وتحكمها في البلاد العربيّة ... كل هذه التفاعلات المتفرقة تثلّ العامل السلي في تكوين القوميّة العربيّة .

ولعله من المفيد ان نلاحظ ان العاملين السلي والايجابي هما متكاملان ؛ اي ان كلا منهما يكمل الآخر في ابراز معالم القوميات ، واعطاءها صورة خاصة ، وشخصية خاصة ، فان العامل السلي ، كالهزيمة مثلاً لا يمكن ان يكون ذا اثر فعال في تكوين قومية ما اذا لم يسبقه عامل ايجابي وهو عزّة المكانة وانفـة الخلق ، وكبرياء النفس ، في اي شعب من الشعوب ، بل انه لابد - على الاصح - من توفر العامل السلي ، فهو اشد اثراً واعظم خطراً في التكوين القومي .

ومن القضايا المسلم بها ان العروبة تعرضت في تاريخها الطويل بعد سقوط بغداد - اذا اعتبرنا هذه المرحلة بداية التعرض للعوامل السلبية - لصنوف شتى من القهر والاذلال والعبودية ، والتحكم ، واننا لنحيل القارئ العربي الى التاريخ لكي يتبين مدى ما تحملته هذه العروبة من الضغط حتى تكونت لديها امكانيّة الانفجار .. بالقومية العربيّة .

القومية العربيّة والاشتراكية :

لكي نتمكن من تحديد علاقة القوميات وهي كما اسلفنا : مشاعر ، وامال واهداف واحدة ، بالنظريات كالأشترائية أو غيرها ، لكي نتمكن من ذلك علينا ان ندرس اولاً احتياجات هذه القوميات ، ومشاكلها التدريجية .

ووصفنا المشاكل « بالتدريجية » لأن الشعوب كالأفراد تختلف مشاكلها باختلاف اعمارها الحضارية .

فالشعب البدائي ، تنحصر مشكلته في تأمين الغذاء الضروري ، والشعب الآخذ
بمسهم من المدينة يحاول ان يتغلب على الصائقات ويكون لنفسه ذاتية خاصة ،
والشعب المتمدين ، يواجه مشكلات القضاء على الطبقات فيه ، وتطوير حياته
العامة ، وزيادة الدخل وصيانة الاستقلال ، وتأمين الرخاء والصحة والضمان
الاجتماعي لكافة افرادة .

فمن هذه الناحية يمكننا الآن ان نتساءل : ما هي مشكلات القومية العربية؟
وهل تغيرت منذ ربع قرن ؟

للجواب على هذا السؤال ينبغي لنا ان نرجع بالذاكرة القهقري .. الى زمن
الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا والانتداب الانكليزي في فلسطين والعراق
ومصر ، وزمن الاحتلال الفرنسي لشمال افريقيا بأكمله ... في هذا الزمن بالذات
كانت القومية العربية موجودة بأجلى وابهى معانيها ، ولكنها كانت مغلفة اليدين ،
تواجهها مشا كل كبرى ، وتداومها صعوبات هائلة :

الحدود المصطنعة بين البلاد ، اساليب الحكم المختلفة - كالمملكة والجمهورية -
والحكومات الانتدابية المؤقتة ، جيوش الاحتلال المسلحة - العملاء في كافة
الطبقات ، ابتداء بطبقة الحكام وانتهاء بطبقة صغار الموظفين ، الجهل ، الاقطاعية ،
الاسر الحاكمة ، الاتكالية ، الفوضى ، واخيراً ... المطامع الجشعة للدول المحتلة .

كل هذه الصعوبات كانت تتراكم على عضد القومية العربية ، وكانت تحول دون
ركبها المظفر ، ولكنها ظلت تقاوم هذه الصعوبات واحدة واحدة ، بفضل خلود
هذه القومية وقوة احتمالها العجيبة .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنان ، واستقل العراق ، واستقلت مصر ،
واحتفظت الدول المحتلة لنفسها في البلاد العربية « بموطىء قدم » اسمته
اسرائيل ، ومن ثم شعرت هذه البلاد شعورها الطبيعي بضرورة الالتئام حول
الفكرة الواحدة والمصلحة الواحدة ، والهدف الواحد ، فتكونت الجامعة العربية ،

ولكن ، حين ظهر ان هذه الجامعة تضم النبلاء والصعاليك ، والسادة والعبيد ، ظهرت عليها بوادر الشلل ، وفقدت قيمتها العملية ، بدليل اختلاق دولة اسرائيل في عهد الميمون ، ثم سرت عدوى الاستقلال الى الشمال الافريقي ، فنهضت ليبيا ، وتحررت مراکش ، واستقلت تونس . وتبلورت القومية العربية اكثر من ذي قبل ، واصبحت ضرورة ملحة . . ينادي بها الجميع .

ثم اصبحت المشكلة التي تواجه القومية العربية هي تنظيم الحكم ، فقد طالما مكث في دسوت الحكم صغار ، وطالما تحكم في الشعب العربي عبيد .

وانتصرت القومية على ادناس الحكم ، وارجاسه ، وهذا الحال في مراکش وفي تونس ، وانقلب الوضع المهترى في سوريا قضي على الملكية الفاسدة في مصر ، واستقام الرضع في السعودية ، وعمت البلاد الاغتيالات السياسية ، وكانت هذه الاغتيالات بداية الطريق لتنظيم دسوت الحكم . . .

ثم تطورت مشكلة القومية الى مواجهة العدو المشترك ، ومنازلته ، والثبات بوجهه ، فتغير حكم وحكامون ، وارتفت ميزانيات الدفاع ، ومصاريف الحرب في البلاد العربية ارتفاعاً ملموساً ، وجرت مبارزات مضحكة ، وكانت الدول العربية تحاول ان تثبت - في كل مرة - ان القومية العربية دائمة العجز ، دائمة الحاجة الى الغير .

ومن هنا برزت القومية لمواجهة مشكلة جديدة . . . مشكلة توحيد الجهود والتخلص من السطرة وفك قيود الحصار الاقتصادي ، وهكذا عقدت اتفاقيات اقتصادية جبارة ، اذملت الدول الغربية وقضت بسهولة على احتكار السلاح ، واختل ميزان القوى .

ثم انتقلت القومية لتحقيق مطلب جديد هو الوحدة . ومطلب آخر هو التسليح ، ومطلب ثالث هو الاستمداد . اما مطلبها الاخير الآن فهو تطوير المستوى الاجتماعي .

من هنا نرى ان القومية العربية متحركة وليست جامدة، وانها متطورة وليست متآخرة ، فهي في كل مرحلة من مراحل حياتها ذات هدف ورسالة ، بدأت رسالاتها واهدافها هكذا بالتدريج :

١ - الاستقلال ، ٢ - الحكم الصالح ، ٣ - القوة ، ٤ - التحرر ، ٥ - الوحدة ، ٦ - واخيراً : تطوير المستوى الاجتماعي .

ولقد حققت القومية العربية اهدافها واحداً واحداً بعزم شديد ، ويقين عظيم ، وستحقق هدفها الاخير بالطريق العلمي الصحيح . . طريق الاشتراكية الصحيحة .

والدليل على ان القومية العربية متحركة ؛ هو ان قادتها وروادها الاوائل لم يكونوا في البدء يلتزمون خطة واحدة، وكانت الاحداث التاريخية نفسها تجعلهم وجهاً لوجه أمام مطالب محددة، وتحتم عليهم ان يتخذوا موقفاً معيناً ، ففي زمن الاحتلال الاجنبي لم يكن للقومية من مطلب الا الاستقلال واتمام الجلاء ، ولم يكن العرب في ذلك الحين يعملون لتحقيق الوحدة، ولا يسعون للتسلح ولا يفكرون بالتطور الاجتماعي ، اذ ان هذه المطالب مع وجود قوات الاحتلال على الارض العربية ليست في الواقع الا احلاماً بعيدة المنال، ومن حسنات القدر ان القومية العربية كانت واقعية في نهجها السياسي ، ومنطقية في كفاحها الاجتماعي ، فلم تكن تعالج الداء الا بالدواء ولم تكن تشهر كل اسلحتها لكل معركة. بل كانت تصعد السلم درجة درجة ، وها هي ذي اليوم تواجه اخطر مراحل وجودها ، وادق فترات حياتها ، فترة النهضة الاجتماعية والاقتصادية .

الاشتراكية والنهضة العربية :

اصبح من تردد القول ان نبين ان الشعوب العربية كانت منذ اول عهدها فريسة « الطبقات » بالرغم من ان الاسلام — وهو الدين السائد في بلاد العرب — قد حارب الطبقة محاربة لا هوادة فيها ولا لين ، وبالرغم من ان الخلق العربي لا يسيغ التعالي ولا يطبق مظاهر العبودية والذل ، ولكن الواقع هو ان نظام الطبقات كان معروفاً عند الشعوب العربية ، وهذا النظام ، وان لم يتخذ شكل النظام الغربي ، ولم يكن فيه نبلاء ، وسوقة ، واكليروس ، وملوك وعبيد ، فانه تلون بلون ديني ، وتحزب احزاباً اسلامية بحتة ، ومن المعلوم ان المجتمع العربي في بداية عهده كان عبارة عن طبقة واحدة هي « طبقة المحاربين » وهم المجاهدون في سبيل الله ، ثم انفرط هذا العقد وتوزع الناس الى امراء وسادة وشعوبيين ، والى عرب وعجم واحرار وموالي والى صناع وتجار وفلاحين .

ولقد كان الصناع والتجار والفلاحون ، الطبقة الوحيدة الباقية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وهذه الطبقة هي التي تحملت المغارم ، وهي التي بذلت الاضاحي ، وهي التي حافظت على الروابط الخالدة بين ابناء الشعب العربي ، ولا جدال في ان المذاهب الانسانية ، التي تهدف الى الرقي الاجتماعي والاقتصادي ، وضعت كلها هذه الطبقة موضع التجربة ، ولا عجب فانها هي الطبقة الغالبة في سواد الشعب وفيها تكمن اسس النهضة ، وقواعد الانطلاقات الثورية في المجالات السياسية والاقتصادية والحربية والصناعية .

الاشتراكية طويق القومية :

لقد انتهت القومية الآن من معركة الاعداد النفسي ، وحصلت — في اغلب بلادها — على الاستقلال ، ووقفت على قدميها ، تواجه صفعات اعدائها بصفعات

أشد قسوة وأكثر تنكيلاً ، وطبيعة الأحداث اليوم ، ومفاهيم السياسة الحديثة تفرض على القومية العربية أن تسهم في بناء الحضارة ، وأن تمد بساعدها الجبار لتقيم للانسانية طودهما الشامخ ، وهي لن تتمكن من التمرس بهذا العمل الضخم ، ولن تستطيع القيام بأعباء هذه الرسالة إلا إذا تخلصت من الأمراض الاربعة :
١ - الانقسام ، ٢ - السيطرة الخارجية الاقتصادية ، ٣ - الاقطاعية الداخلية
٤ - التأخر الصناعي .

ولسنا بحاجة الى بحث وتنقيب كبيرين ، لكي نصل الى النتيجة الحتمية ، وهي ان الاشتراكية هي السبيل الوحيد ، للقضاء على هذه الآفات الاربعة ، والاشياء غير الاشتراكية يحقق الوحدة العربية ، ويقضي على السيطرة الخارجية الاقتصادية ويذيب الاقطاعية الداخلية في بوتقة من المحبة والاخوة والتسامح ، ويرفع في سهول البلاد وفي جبالها ، وفي صحاريها ووديانها ، مداخن المصانع الكبرى ، ويدير عجلات المعامل الضخمة التي توطد دعائم الاستقلال ، وتمد مرافق البلاد بدماء جديدة ، وتدعم جيش البلاد ، وترفع معنوية الشعب ، وتجعله حقاً وصدقاً نداً قادراً على الوقوف بوجه الذين كانوا الى زمن قريب يمسون دماءه ويسرقون ثرواته ويتحكمون في ارزاقه .

ان القومية العربية تنشأ الرخاء الاقتصادي ، ولا شيء يحقق ذلك الا : « التصنيع » ولا وسيلة لتعميم التصنيع الا وسيلة الاشتراكية ، وتسخير ثروات الشعب من اجل رخاء الشعب وعزته .

وانه لما يملأ القلب فخراً واعتزازاً ان تنهض في الجمهورية العربية المتحدة اسس المئات من المصانع ، وان ترسى القواعد لاضخم المؤسسات الصناعية في الشرق ، التي ستكون ولا شك المنارات الحديثة ، التي تستهدي بها العروبة طريقها ، وترفع القومية هامتها ، وترسخ اقدامها ، وتعود الى سابق عهدها ، رسالة انسانية نبيلة ، تساهم في اسعاد البشر ، وفي توفير الرخاء لبني الانسان .

ولن يمر زمن طويل حتى تحقق الاشتراكية العربية اهدافها ، في كل مكان ،

فتلغى الحواجز المصطنعة ، وتمحى الفوارق المفتعلة ، وتوزع الثروة توزيعاً عادلاً
ويقف العربي في تطوان ، ليشهد في ربي النيل قوافل الشباب العربي الناهض ؛ يبني امة
ويصنع مجداً ، ويصعد الى الجبل اللبناني ، ليبارك الضواحي الصناعية على ضفاف
دجلة والفرات . والشعب العربي واثق كل الثقة ، ان اعداء القومية العربية هم وحدهم
الخاسرون ، وان القومية العربية هي المنتصرة في النتيجة ، لانها مندمجة بمنطق التاريخ
وتطوراته ، ولانها تحمل في ذاتها جميع امكانات الانتصار .

بين العروبة والإسلام

● الاسلام في كافة مظاهره : في عقائده ، وعبادته ، ونظمه ومعاملاته ، لم يكن لطائفة معينة او لجنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة واسلوب في العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقاً لهذه العقيدة .

● من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت احد الوية الاسلام . وهو الذي افصح عن مواهبها وساهم في تاريخها فامتزجت به في امجاد ادوارها ، والمسلمون في العالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطناً واحداً .

● ان العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به . . مسلمين ومسيحيين ، والذين يخلقون الاكثوية القائلة بأن الاسلام هو القومية العربية هم المستعمرون .

قد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب . غير اني قبل كل شيء ، احب ان اصارح القراء الاعزاء باني افخر بعروبتى مثلاً افخر باسلامي ، واني لاسمح لنفسى في هذا المقام ؛ ان اتبنى بعض الفرائد التي نطق بها الخالدون فأقول : لو لم اكن عربياً لتمنيت ان اكون عربياً ، ومن هذه الروح اصوغ عبارات بحشي هذا ؛ ومن وحيها سأحاول ان اسلط الاضواء حول هذه القومية العزيزة وانفخ في حناياها قبسة من نار الحياة ونورها ، وانفض عن مرآتها الجلية ، بعض غبار الزمن وبعض لطخات الصدا ، عساها تعود كما بدأت قومية فتية بنساء ؛ تكن فيها كل عوامل الخلود والبقاء .

فترة حاسمة :

ان التاريخ الآن يمسك قلمه ، ويتطلع نحو البلاد التي تشرق منها الشمس . ويرنو ببصره نحو الربوع التي تواكب مغربها ، والتاريخ حينما يمسك بالقلم ويرقب شعباً من الشعوب ، فان هذا الشعب قادم على اخطر مرحلة من مراحل حياته سلباً او ايجاباً .

ونحن العرب في هذا الزمن بالذات يحق لنا ان نتفائل مسبقاً بالمستقبل الضاحك ، ويحق لكم ايها القراء الاعزاء ان تعتبروا انفسكم من الخالدين لانكم تواكبون فترة خالدة من تاريخ العرب ، هذه الفترة التي سيقراً عنها احفادكم غداً ، وسيقولون : هنيئاً لهم لقد شهدوا بقطة العروبة .

سيقول البعض : انني اغرق في التفاؤل ، وسيقول آخرون لقد نطقت عاطفته . ولكني ادعو هؤلاء واولئك ، فاقول لهم انظروا الى مصر التي كانت الى عهد قريب تربط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالرعامسة والفراعنة ، وتسير في ذلك النهج حقبة طويلة من الزمن ، لايناها منه الا الضيم والاحتلال والذلة والامتهان ، ثم اذا هي تصحو على فجر دافىء ، تنبع انواره من ذاتها ، من ذات الشعب المصري ،

فتظهر لها حقيقتها العربية الصريحة ، وخيالها الفرعوني الكاذب ، وتفرض بهذا الحقيقة وجودها وارانيتها واحترامها على دول الأرض جميعاً .

لست اريد من وراء ذلك ان اذهب الى ان العروبة هي التي نصرت ارض الكنانة ، أو انها على الاقل هي التي عاونتها على اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، ولست اريد من ناحية اخرى ، ان انفي فعالية الوطنية المحلية وصمودها الجبار في معركة الشعب المصري . ولكنني اريد ان اقرر حقيقة واحدة ، وهي ان العروبة في مصر وفي سورية وفي الاردن وفي لبنان هي المرحلة الناضجة من مراحل تطور الوطنية . وانه في اللحظة التي يتفاهم فيها العرب جميعهم على انهم عقد واحد ، يشع جمالا أخاذاً ، ويشكل في مجموعته ثروة هائلة ، اما في افرادهم فليسوا سوى بضعة احجار كريمة ، ليس لها قيمة العقد المنظوم ولا قدره . اجل في الوقت الذي يتعارف فيه العرب على اختلاف دولهم انهم عقد ثمين واحد ، وان رابطة هذا العقد هي العروبة فقد عرفوا الطريق الذي يمتد بهم نحو الغاية التي ينشدونها جميع شعوب العالم ، وهي الرخاء والعزة والسيادة والاستقلال .

بين العروبة والاسلام :

وانه لمن المؤسف حقاً ، ان ينفخ بعض ذوي الاغراض من ابراق الاستعمار نغمات طائفياً دينياً ، لا غاية له ولا هدف ، الا تفريق الكلة وتصديع الصفوف والاطاحة بالوحدة الوطنية التي تجمع شتات فئات هذا الوطن ، حول الميثاق الوطني المعقود عام ١٩٤٣ والذي اعتنقه لبنان الرسمي بمجرد دخوله الجامعة العربية وابرامه ميثاقها وتوقيعه على بروتوكول الاسكندرية .

هذه النخمة المقيتة ، ارتفعت بها بعض الاصوات الناشزة ، رداً على الموقف الذي وقفه الشعب اللبناني من قضية العدوان الآثم على مصر ، بقصد عزل لبنان عن

المجموعة العربية، وشمل كل نشاط يمكن ان يقدمه لخدمة القضية الكبرى التي يناضل من اجلها العرب .

وقد دفعتني هذه النعمة الى اختيار هذا البحث بالذات، لأنها كانت تهدف الى الايهام بان العروبة تعني الاسلام . وانه لا يمكن ابدأ الفصل بين العروبة، كقومية والاسلام كدين؛ فهما متلازمان كل التلازم ، مندسجان كل الاندماج .

ومن المؤسف ايضاً ان يقع في هذه المزالق—عن حسن نية طبعاً—بعض قادة الفكر في هذا البلد، فيخاطون بذلك مع الاسف بين العروبة والاسلام، ويزعمون ان مؤسس الاسلام هو مؤسس العروبة، متجاهلين بذلك كل وقائع التاريخ وكل الحقائق العلمية التي هم ولا شك حريصون عليها حرصهم على معرفة الحقيقة .

وسنحاول الآن في هذا البحث ان نجلو هذه النقطة الدقيقة الخطيرة ، التي يتمسك بها بعضهم عن سوء نية مدفوعاً بعوامل كثيرة لا تشرف في كل حال ، والتي ينادي بها البعض الآخر عن حسن نية ؛ دون ان يتحروا بذلك الدقة العلمية والتاريخية .

ولسنا في هذا المقام نقف موقف المدافع عن العروبة؛ لاعتقادنا انها ليست بحاجة الى دفاعنا. ولا لنرد على فرد معين ، بل لنعرض بعض الحقائق التاريخية التي تثبت ان العروبة ليست فعلاً هي الاسلام ، وانه وان كان من ايجاد العروبة انها كانت جندي الاسلام الاول .. فمن مظاهر قيامها بنفسها ، ان الاسلام—في بعض مناسكه الدينية — قرر عاداتها وتقاليدها؛ وأقرها حتى انها في النهاية حملت اسمه ؛ وهي من أفعال العرب الأولين .

ثم إن الباحث في هذا الموضوع يصادفه منذ البداية سؤال واحد : ما هو الاسلام ؟ وما هي العروبة ؟ وما هي الصلة بينهما ؟ وهل كان الاسلام كدين سماوي لا يحمل على الاعتقاد بأنه ظاهر الرعاية للعرب دون غيرهم من الأمم ؟

لننظر الى الاسلام نظرة عاجلة؛ ولنحاول أن نستخلص منه بعض الصور الناطقة بانه لم يكن في يوم من الايام دين العرب فقط لا اعتبار واحد بسيط ، وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامي هو رب العالمين ، وان محمداً حسب التعبير القرآني رسول للناس كافة .

والاسلام في كافة مظاهره : في عقائده وعباداته ، في نظمه ومعاملاته ، لم يكن انانياً قط ، ولم يحارب الاديان التي سبقتة ، بل دعاها اليه للمجادلة والبحث بروح من الفهم العميق ، والسماح الرائع ، وسعة الصدر ، وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن ، وكان ذلك بعد ان أقر لجميع الناس بحرية العقيدة » قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

وبعد ان وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدي الاسلامي الذي لا يؤمن بالاكرام ويقدر العقل النير « لا اكرام في الدين قد تبين الرشد من الغي » وبعد ان أكد ان محمداً ليس الانبياء يوحى اليه ، كما أوحى الى عيسى من قبله ، وكما أوحى الى موسى من قبلهما ، وكما أوحى الى داود ونوح قبل اولئك جميعاً فقال تعالى « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو ان الاسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة ، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، وأظهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بني البشر ان يفضل أخاه ابداً الا بالتقوى (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) وذكر العربي بالذات . ثم انه من ناحية أخرى

فرض على العامة إطاعة أولياء الامر ، دون النظر الى عروبتهم أو الى اعجميتهم ، ودون التفريق بين ألو انهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا ولو رلني عليكم عبد حبشي رأسه كزبيبة) .

ثم ان قريشاً وهي القبيلة التي كان منها النبي ، وشرفت بنبوته في أعين النسا بين العرب ، وبلغت شأواً بعيداً ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هي - قرائي الاعزاء - آثار تدليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ اناس على القول بأن الاسلام هو العروبة ؟

اسمحوا لي ان اكون صريحاً الى ابعد حدود الصراحة ، وان أسير في الشوط حتى النهاية . فهناك بعض الاسئلة تحرق شفاه الناس ولا يبدونها . وهناك بعض المخاوف تدمدم في صدورهم ولا يظهرونها ، وأنا منذ نشأت عدو التخفي والخوف ، والرياء والحذر ، اذا كانت بضاعة رائجة بين الاخ وأخيه والشقيق وشقيقه .

العروبة لا تخيف احداً :

لنتصارع ، فالعالم بأمره يعلم ان العروبة لا تخيف ، وليس بها ادنى خطر على جميع العقائد ، اسلامية ومسيحية ويهودية .

قلت اسلامية ، لان فريقاً من المسلمين يعتبر العروبة خطراً على الاسلام كاعتبار بعض المسيحيين لها ، فيجب محاربتها والقضاء عليها في نظر الفرقةين جميعاً .

ان العروبة لا تخيف ... لأنها وطنية سامية وقومية هادية ، تجمع كل الملل والنحل . فقيم الحيرة إذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المترفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها - قوة واقتداراً - ان تكون في صف الاسلام، حتى تتكون ضدها جبهة من تجار الاديان المتحالفة ، ولان نعتها بالاسلام، وجعلها بديلاً عنه وجعله بديلاً عنها يخدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناءً كبيراً في إذكاء نار الطائفية وبث سمومها ، وبالرغم من اننا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التي كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه ، بالرغم من ذلك، فاننا سندفع بإيجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معتقده، دون ان نجافي عنصر الموضوع ؛ لأن العروبة قرينة الاسلام وشريكته في هذا الاتهام .

المساجد والصوامع في القرآن الكريم :

لنستمع معاً الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ فيه انه يعتبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد اتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيلاً حينما قدم معابد النصرى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه في هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى . فقد حظر على المسلمين ان يستخدموا معابد الذميين لأداء الصلاة حتى لا يدعي المسلمون فيما بعد حقاً عليها . وما زال يتخايل أمام ناظري ظل الخليفة العادل عمر ابن الخطاب ؛ وهو قائم يصلي خارج كنيسة بيت المقدس، لا شيء إلا ليؤكد للمسلمين عملياً احترام المسلم لأخيه المسيحي احتراماً يقوم على محبته وتقديره للكنيسة .

أما ما فعله قبل ذلك الصحابي الصادق ابو بكر رضي الله عنه ، وما اوصى به جنده حين سيرهم في سبيل الله ، من اجتناب البغي والعدوان ، والامتناع عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ ، وحين نهاهم عن التعرض بقليل او كثير للرهبان المنتثرين في صوامعهم في البلاد ، كل ذلك اصبح مشهوراً بين الناس ومعروفاً ، ولست اجد فائدة من تكراره في هذا المقام .

الملوك المنحرفون :

لقد احترم ديننا أتباع الاديان الاخرى احتراماً لا يمكنه حزب سياسي في القرن العشرين لأنصار حزب سياسي آخر ، وإذا كانت الظروف السوداء قد جعلت على بعض العروش المسماة على الاسلام ملوكاً يحملون اسماء اسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، كما حدث في الازمنة الاخيرة للاسلام ، فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله ، وليست مبرراً للحملة عليه بل على القائمين بأمره .

ولكي نظهر مدى هذا الاحترام الذي يضمه الاسلام لسائر ابناء الديانات الاخرى ؛ علينا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو اصدق دليل عندنا ، وفيه ما يدل بوضوح على اعتباره التقديسي لروح الموسوية الصحيحة إذ يقول « وامت كلمة ربك الحسنی على بني اسرائيل بما صبروا » وفيه ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يحل المسيحية الربانية ايما اجلال ، ويكرم نبيها ايما تكريم إذ يقول له « يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

وسالة الاسلام وحقيقة القومية :

اظنني استطعت الايضاح عن موقف الرسالة الاسلامية من اتباع الرسالات الاخرى ، واستطعت وضع النقاط على الحروف ؛ حول بعض الالتباسات التي كانت تثار ، وتشور من ورائها الشكوك عن ارتباط الاسلام بالعروبة ؛ وانني لا اعتقد انه امكنني الاثبات ، بأن الاول هو دين سماوي لاتهمه القوميات ولا الشخصيات بقدر ما يهمه العمل والاخلاص ، وان الاخيرة هي قومية قائمة بذاتها ، لها تاريخها وحضارتها ومدنيتها السابقة على الاسلام وعلى المسيحية ايضاً . وانها تتميز بالمعنى التاريخي بخدا وط كبرى ، وشخصية منفردة جديدة بالبحث والدراسة .

بقي الآن ان نثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام ، وحضارتها الفردية ذات الطابع العربي الخاص ، وانها كان لها رجالها وامجادها ، وكانت لها حقبة من الزمن لعبت فيها الدور الاساسي الاول ، في سياسة هذه البلاد ، وحكمها وشؤونها . وقبل ان نخوض هذا البحث التاريخي العرف ، نحب ان نوجه الانظار الى بعض الملاحظات الهامة التي تعبر عن وجهة نظرنا تعبيراً صادقاً بدون غموض .

اولا : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقابل بأن المسيحية هي الانكليزية مثلاً أو الافرنسية أو الايطالية أو الاسبانية .

ثانياً : من حظ العرب ان آمنوا برسالة محمد وحملوها الى جميع الانحاء ، واذا كان انتسابهم اليه ؛ يجعلهم بدلاً عنه ، فلماذا تكون الاندونوسية بديلته ايضاً ؟

وفي هذه المناسبة تحضرني حادثة طريفة ، كلما مرت بمخيلتي ازددت اعجاباً بالعروبة ، وتعلقاً بها ، وازددت ايماناً بأننا هنا في لبناننا الحبيب ؛ حملة رسالتها قبل غيرنا من الشعوب العربية . والحادثة هي : أن اول مجمع لغوي عقد في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وجرى فيه التساؤل الذي يحيرنا الآن ، وهو : هل نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أم نحن مسلمون قبل أن نكون عرباً ؟ .

وجواباً على هذا التساؤل تبارى مندوبو الدول العربية في رسم الحلول وترتيب النتائج .

اما مندوب لبنان وكان يومها الشيخ عبد الرحمن سلام امين سر الفتوى إذ ذاك فقد ارتجل هذين البيتين :

قال عبد العزيز قولاً حكماً	والصواب الذي يقول الامام
نحن قبل الاسلام عرب ولكن	نحن بعد الاسلام عرب كرام

حضارة العرب قبل الاسلام :

والآن لنترجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بإمعان وتجرد ، بحثاً عن حضارة العرب ومدينتها .

هذه واحة خصبة تمتد في الطرف الشمالي من الصحراء العربية يكتنفها دجلة والفرات ، وسهول حلب وحمص وانطاكية ، وواحة دمشق وسهول حوران . انها تدمر عاصمة أدينة والزباء ، عاصمة الدولة الفتية التي لعبت دورها الخالد في التاريخ .

لقد تنبه الرومان الى الموقع الاستراتيجي الهام لهذه الواحة ، فأرادوا ان يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد . فهاجمها قائدهم مرقس انطونيوس عندما كان عائداً من حرب الملوك الارشكيين .

وما ان وصلت انباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب ، حتى هبوا لملاقاة القائد الروماني الغازي دفاعاً عن مدينتهم ، ونشبت بين الفريقين معركة من اعنف المعارك قدّر فيها للتدمريين ان ينتصروا وان يحطموا النير الاجني .

ولكن الرومانيين لم يأسوا فهم يعرفون اهمية المركز التجاري والحربي لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ؛ فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليها ، وانهبوا يعتدون على القوافل التدمرية ، وينهبونها بعد ما صمد في وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحواً من قرن ، ولكنها اضطرت امام الضيق الاقتصادي الناتج عن الحصار ، وتوالي غارات الرومان على تجارتها ، اضطرت الى الارتقاء في حضن الامبراطورية .

ولكن انماها هذا لم يفقدها طابعها الحضاري ، ولم يوقف نمو مدنيتهما مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة في وجه الفاتحين .

وكان ذلك في عهد اذينة الاول ابن السميدع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج باسم Sarrasins وهي محرفة من لفظ « الشرقيين » . لقد كان اذينة يتصرف في صباه كما يقول المؤرخ (ن . بوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطاد السباع والفهود والذئبة وغيرها من الوحوش الضارية . وكان يحتمل في سهولة ويسر الحر اللهب والبرد القارس في السهول والجبال والغابات . كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد في رضى وسرور ، وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع الا يرى أوار القبيظ ، واهباء الزوابع في معارك فارس غير امر عادي لا يعبأ به ولا يؤبه له .

لقد كان اول عمل قام به اذينة العربي خلع سلطنة الرومان ، وتحرير تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذي كان خطره يقترب يومئذ من بلاد الشمال .

غير ان سابور مني في احدى معاركه مع الرومان باندحار هائل ، حمله على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الروماني ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك اذينة ان الرومان سيحققون جيشه ، وسينتقمون منه جزاء ثورته عليهم ، وادرك ان سابور حليفه لا يستطيع تقديم المعونة اليه بعد اندحاره الفظيع في بر الشام امام جحافل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار روماني جديد .

وقرر سلوك نهج سياسي جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور باسئهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبض فيها يترقب الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وضرد النفوذيين : الروماني والفارسي معاً .

ومرت رومة بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فحين على

الرومان حرباً ثأرية كتب له فيها النصر .

وفكر أذينة في موقفه تجاه هذا الوضع ، واحس ان سابور يبيت له الشر فحاول ان يتقرب اليه تجنباً للاضطدام به ، إلا ان سابور داخله الغرور والصلاف فكان لا مفر لأذينة من ان يحاربه .

وقدر للبطل العربي ان يدحر سابوراً وجيشه ، وان يحطم كبرياءه وعنجهيته ، بما أوتيته من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم .

وانكفأ أذينة لمقاتلة الرومان فسار الى حمص ، وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتمكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقيق على يده قيام مملكة عربية مستقلة .

وكان اول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة ، هو القضاء على الاضطهاد الذي كان نصارى الشام في انطاكية وحمص ودمشق وقيصرية عرضة له ، فأطلق لهم الحرية الدينية واوعز الى الوثنيين - وكان هو وثنيًا - اوعز اليهم الا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ، وابعاح لهم إقامة البيع والكنائس .

ولكن أذينة لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه ، فكثيراً ما يكون المصلحون الثائرون أول الضحايا لثوراتهم . وهكذا قدر لأذينة ، فلقد غدر به احد ابناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الروماني هرقلوس .

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربي هو الذي دفع أذينة لان يبني ملكاً له ... فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقاً ، ولكن الاحساس القومي كان هو أهم الدوافع التي حملت أذينة على التمرد والوقوف في وجه أقوى دول عصره ، بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعني بهما الفرس والرومان .

فلقد حز في نفس هذا البطل ان يظل قوميه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطناً لسنابك خيلهم ؛ فأثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء او زينب او زنوبيا كما اطلق عليها الرومان واليونان ، جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق .. واخذت تنظم شؤون مملكتها وتوجه اهتمامها - جل اهتمامها - الى الجيش ، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية ، وتشاطر جندها شظف العيش وخشونة الحياة ، وتعد نفسها لتحمل اعباء القيادة .

وكان النفوذ الروماني بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الاحداث ، حتى اذا دببت النفوضى في الامبراطورية الرومانية اعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلاً ثم امبراطوراً .

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها هي ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها في التداول ، وفي عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان ، بعد ان سirt لهذه الغاية جيشاً مؤلفاً من سبعين الف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الاستاذ كرد علي في كتابه خطط الشام .

وما كادت انباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرية و « هبة اللات » قيصرأ ، وضربت نقوداً جديدة تحمل صورتها ونقبتها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وسواحل البوسفور ، وكانت غاية زنوبيا من هذه الحملة الجديدة ، تحرير آسية من النفوذ الروماني ، ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الآسيويين على ابقاء النفوذ الروماني .

وكان من الطبيعي ان يحقد الرومان على تدمر ؛ وان يحاولوا هدم سلطانها ، فحشدوا قواهم ، وهاجموا مصر ، فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين

الضارية . عندئذ رأت زنوبيا ان تركز الدفاع عن مملكتها ، ولكن (اورليان) امبراطور الرومان ، وهو الذي يعرف بسالة التدميريين ، لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار في احدى المعارك ورجع عن انطاكية ، ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدميريون ان الرومان قد هُزموا فعلا ، فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس في الانسحاب الى حصص ليحعل منها خطاً دفاعياً جديداً عن المملكة .

وفي سهل حصص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هي الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور ، وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصناً أخيراً .

وحاصر أورليان تدمر و طال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هجيناً وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ، ولكن جنود الرومان أدركوها وهي تعبر الفرات فقبضوا عليها وأعادوها اسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها ، فأعلنت وهي في اسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربي ، وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار في القرن الثالث الميلادي ، وحاضرة العاهلين العربيين العظميين أذينة والزباء .

الغساسنة وبنو تغلب ومملكة سبا :

تعالوا معي نسير عبر التاريخ ... ونودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة اخرى من صفحات المجد العربي قبل الاسلام .

ها نحن أولاء .. في مشارف الشام بين مضارب الغساسنة ... فهموا نستنطق التاريخ عن اجماد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكاً ، وأقاموا حضارة ، قبل انبثاق الفجر الاسلامي .

ان الحديث عن الحضارة النامية في مراتب هؤلاء العرب حديث محبب ، ولكنه اثير ايضاً عن قبيلة اخرى مسيحية عربية ، هي قبيلة بني تغلب التي اشتركت في معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الأخطل . وأجدني الآن مدفوعاً لتلمس معالم حضارة عربية اخرى في الصحراء العربية السمراء ، وفي اليمن التي أطلق عليها الفرنجة منذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة عند الامم السامية ، إذ كان موقع اليمن الجغرافي من أهم الاسباب التي ادت الى نشوء حضارة مترفة في ديارها ، فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية . وتتمتع هذه المنطقة بخصب واخر في جبالها العالية وهضابها المخضرة ، وسهولها الفسيحة ، كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجاري بالغ الاهمية ، وقد ساعد هذان العاملان من ازدهارها ونمو الحضارة فيها ، ولقد أطلق الدكتور حتي على عرب اليمن اسم فينيقيي البحر الجنوبي ، لانهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا في تجارته في الالف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية أخرى في البر من حضر دوت الى قارب ، ومنها الى مكة والبتراء ، ثم الى سورية ومصر والعراق . وكانت لغة سكان تلك البلاد اللغة الحميرية ، أي اللهجة العربية الجنوبية ؛ الى زمن يقرب من الفتح العربي ، حين احدثت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة ، بينما اخذت اللهجات الجنوبية تتدهور . وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها ، فتدهورت حضارتها وانحطت ، فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية ، وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التي كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

اما الدول العربية التي تداولت الارض اليمنية ، فأقدمها الدولة المعينية التي ازدهرت في اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت في نهضتها على معظم اقسام الجزيرة العربية ، وما تزال معين العاصمة التي تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم ، كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى أطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

ولقد استطاع المؤرخ « مولر » ان يكتشف اسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك دولة المعينيين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعينيين ، قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبي الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديماً (مراوح) ثم اصبحت مدينة مأرب المشهورة بسدها العظيم ، وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

المملكة الحميرية :

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة ، هي المملكة الحميرية الاولى التي امتد بقاؤها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروي لنا التاريخ قصة القائد الروماني (اليوس غالوس) الذي حاول غزو اليمن على رأس جيش روماني لأهميتها التجارية ، ولكنه لم يوفق في غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

في هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب أرض كوش ، ووضعوا فيها اسس المملكة الحبشية ، فكان لهم الفضل الاول في انشاء تلك الحضارة الحبشية . وبنى ملوك حمير ، تخليداً لاسمهم قصر رغدان ، الذي بقي قائماً نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهمداني ووصف روعته ، وما حوى في بنائه من آيات الفن والزخرف .

حضارة اليمن :

وفي القرن الاول بعد المسيح، ينحرف التاريخ انحرافاً خطراً ؛ يؤدي في النهاية الى تلاشي سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء ، وذلك ان العرب اليمنيين وكانوا كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، ويفرضون رسوم المرور على البضائع ، ويجبون منتجات بلادهم بأسعار باهظة . وكان عرب البتراء وتدمر والعراق ، يتحكمون من جانبهم بالتجارة الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان ؛ فأعاد بطليموس الثاني فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الاحمر ، وتمكن الرومان بمساعدة الأحباش من الوصول الى المحيط الهندي ، فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر . وبدأ عهد الانحطاط في اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التي تدخل المسيحية واليهودية في ايامها بتلك الاصطناع ، فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى ، ويتآمر « ذو نواس » آخر ملوك حمير على نصارى اليمن الغربي ، لخضوعهم لنفوذ الحبشة ، فيدبر لهم مذبحة في عام ٥٢٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر ، ويعبر سبعون الفا من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية ارض اليمن ، ليتحكموا بأهلها جميعاً من نصارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحماية النصارى والثأر لهم .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الاسلوب الاستعماري ، ظل الى يومنا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيرة واستعمارها . وفي هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدي القائد الحبشي (أبرهة) ويتعذر ترميمه ، ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة ، وكذلك يفعل الكثيرون من بني طي والتنوخين وكندة ... وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذي يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس ، ولكن آمال القائد العربي اصبحت بالفشل حين وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشي في استعمار اليمن .

وهكذا استبدلت اليمن استعماراً حبشياً باستعمار فارسي، ظل مسيطراً الى ان ظهر عرب الشمال في القرن السابع بعد المسيح في احدى الحملات التي شنها اتباع الدين العربي الجديد .

نهاية المطاف :

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ، وليس باستطاعة أي مؤرخ منها كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حضارة اليمن الزاهرة ، أو ان يتجاهل الانباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغزة ، وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن ، او اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير في معارج التاريخ ، فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فيتنصر الكثيرون من ابناءها ، ثم تنبثق الارض العربية عن الرسالة المحمدية ، فيكون الاسلام دين القومية العربية وابناً عبقرياً لها .

موجات الاستعمار والبلاد العربية :

كيف لا يكون العربي عربياً لأنه اعتنق المسيحية او الاسلام ؟ وما علاقة الدين — كرسالة سماوية انسانية لكل الناس — بالقومية المختصة بشعب من الشعوب ؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المسيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان في الارض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن اين جاء هذا الوهم الشائع بان العروبة تعني الاسلام ؟ وبأن المسيحيين في هذا الشرق العربي غرباء ؛ ليس لهم من اجداد هذه الامة العريقة ما للمسلمين ؟

انه الاستعمار... الاستعمار الذي يحاول دائماً ان يندس في صفوفنا ليفرق ويسود ، الاستعمار التركي الذي جاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعي ، فاذا به نير ثقيل

يثقل أكتاف المسلمين قبل المسيحيين ، وإذا بالثورة التحريرية تنطلق من صفوف كل المواطنين الشرفاء ، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، وإذا بأعواد المشانق ينصبها السفاح التركي جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين ، وإذا بالدماء المهرقة تنصهر في وحدة وطنية رائعة ، هي شيء من هذا القبس الحي المتوثب في روح كل فرد . أنه الشعور القومي ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التي تلف الجميع في النكبات وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية .

ويمضي الاستعمار التركي غير مأسوف عليه ، وتنشق هواء الحرية ملء رثائنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتي عملاق جديد من عمالقة الاستعمار ، انه الاستعمار الفرنسي وزميله الانكليزي الذي جاء هذه المرة ليحمي المسيحيين من المسلمين . وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن الواحد الى اوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا ، والبعض الآخر لقمة سائغة للانكليز .

ولكن الاستعمار أثبت مرة أخرى انه لا يحمل اليمن والخير والسعادة لفريق من المواطنين دون الآخر ، غير انه يحمل لهم جميعاً الذل والمكر ، والحقد والاستغلال وشروط العبودية . فاذا بالنضال من اجل الحرية يتجدد قوياً عنيفاً عند جميع المواطنين مرة أخرى تحت راية الوطنية الحقة ، التي يتسع صدرها لجميع الديانات السماوية الكريمة .

هكذا شاء الاستعمار ان يقنع الاقلية المسيحية في الوطن العربي ، أن وحدة هذه الأقطار هي وحدة دينية فحسب ، يجمعها الاسلام ، وتاريخ الاسلام ، ورسالة الاسلام ؛ ولكن الفئات الواعية كانت تلقم هذا الاستعمار حجراً كلما طاب له ان يردد هذه النغمة ليمتص خير ارضنا ويسرق رخاها .

ليعلم الاستعمار :

ألا فليطمئن الاستعمار أياً كان نوعه ، على سلامة المواطن ، اي مواطن في هذه

الديار ، وليفهم ان المسيحيين من هذه الامة عرب قبل غيرهم ، لهم ما لغيرهم من
أعجاد العروبة . ساءوا في بناء عزها ، وانهمرت دماء شهدائهم مع دماء اخوانهم
المسلمين ، كلما تعرضت هذه البلاد لجور الطفاة الغزاة ونكباتهم .

وليعلم الاستعمار الذي ينصب نفسه وصياً وحامياً لحقوق الشعوب الصغيرة ،
ليعلم اننا جميعاً بخير ما دام هو بعيداً عنا .

لقد كان هذا السبب من اهم الاسباب في اشاعة هذا الوهم المغرض ، ولكنه
لم يكن الوحيد ، فلقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربي ، فجعلناه
أو جعله معظمنا جهلاً فاضحاً . وساعد على ذلك الثقافة الاجنبية التي لم تكن تلقننا
العلوم فحسب ، بل تلقننا معها ان ننسى تاريخنا، وان نهمل تراث اجدادنا الحضاري،
ليكون جيلنا جيلاً منقطع الصلة بماضيهِ ، يعيش حاضره الاسود القاتم بائساً محطماً ،
فيندفع الى احضان الحضارة الغربية التي تقدم اليه على اطباق من ذهب ، فيكون بذلك
قد فقد عروبوته الاصلية ، واصبح عضواً مشلولاً غير ذي فاعلية في جسم العالم الكبير .

كانت هذه الاسباب تتراكم على الشرق العربي ، في فترة سوداء من تاريخه ، في عصر
الخطا ت تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات ، وبعض الناس ، والواعون
منهم يحاربون اخطاراً أكبر من هذه ، والبعض الآخر يتخبط في محيط من الجهل
طاغ ، ونحن واثقون في هذه الفترة التحررية التي تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ،
وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضي
نهائياً على هذا الدخيل الكريه . . . الاستعمار ، وحين نقضي على اطماعه واذنابه
ومطاياه في بلادنا .

دور الاسلام في الوطن العربي :

بقي علينا ان نوضح مكان الاسلام في الوطن العربي .

ان القومية كما نعلم هي هذه الارض التي تنمو عليها مواهب الأمة من آداب وفنون وعلوم وحضارة . والاسلام في تاريخ العروبة ثورة تحريرية نضالية وانتفاضة جريئة لهذه الأمة ، كشفت عن غيوم الجاهلية ، وحررت الشعب العربي في سورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر من نير الرومان ، كما حررت العراق من نير الفرس .

انه انقلاب جذري في حياة العرب وفي نفوسهم ، أهملهم لقيادة العالم القديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس .

فالاسلام اذاً في حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ، ساهم في تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها في اجدادها . ومع هذا فالاسلام ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لان في العرب مسلمين وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب ان يؤلف المسلمون في العالم كله قومية واحدة ووطناً واحداً، وان يؤلف المسيحيون بدورهم قومية واحدة ووطناً واحداً، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيداً نسبر اغوار التاريخ ، ونكشف حقائقه ونحن نعيش واقعاً جلياً يوضح القضية من جميع جوانبها .

أفليست تركيا المسلمة من الدّ أعداء القومية العربية ؟

الا تحتضن هذه الدولة المسلمة اسرائيل المسخ؟ وتشارك معها ومع بريطانيا وفرنسا في التآمر ضد القومية العربية المتوثبة ؟ والتي تنتفض من جديد لتستعيد مركزها في العالم ، ولتحمل رسالتها في الخير والسلام بعد ان فرض عليها الاستعمار هذه الهبة الطويلة .

أفلا نجد تركيا المسلمة، تطل من وراء كل مؤامرة اجنبية تكيد لهذه الامة التي

تنشد السيادة والحرية ، فاذا بالارض التركية مسرح حيكت عليه وتحاك كل مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك اقطاب في تدبيرها ؟

وايران والباكستان المسلمتان ، الا تحالفان مستعمرينا وناهي خيراتنا دون ان تردعها رابطة الدين .

رسالة المواطن العربي :

في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا وحياتنا ، وفي هذه الايام العصيبة التي تمر بها دنيا العرب وهي تحارب الاستعمار بكل ما تملك من بأس وقوة ، وتتطلع الى الغد المشرق ، وتناضل الخونة والجواسيس وتجار الوطنية ، فتخوضها معركة حياة او موت ، معركة شعب اصيل ذي حضارة واجداد ، معركة شعب يتطلع الى الماضي يستمد منه عزماً وإيماناً وتصميماً ، وتصهره الآم الحاضر فيحاول ان يخلق من كل ذلك مستقبلاً جديراً بأمته ، وان يتابع الرسالة الخيرة التي بشر بها اجداده .

في هذه الايام يجدر بكل مواطن ان يعي هذه الحقيقة ، وهي ان رسالة القومية العربية الجديدة ، هي رسالة القومية التي لا تعرف العصبية او الحقد ، رسالة القومية المتفتحة ، التي تود ان تعيش مع باقي القوميات في سلام وامان ، لا استعمار ولا استغلال ولا عبودية .

هذه القومية التي تضمننا مسيحيين ومسلمين ، ساهمنا جميعاً في بناء صرح حضارتها ، وامتزجت دماؤنا جميعاً في معاركها ، انها ارث لكل منا ؛ لم يورثنا اياها نبي من انبياء الله ؛ ولا حملنا اياها دين من الاديان ، بل كونتها لنا طبيعة حياتنا ومبرارتباطنا .. ارضنا هذه التي نحيا من خيراتها ، ونتنشق نسماها ، ونحرث سهولها ووديانها ، ونسكن جبالها وشطآنها .

اجل ان العروبة هي واقعنا الذي لاغنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به ...

نداء ونصيحة :

وليعلم الضائعون وراء سراب الاستعمار ، ان كل كيان في الاوطان العربية لا يستند الى عنصر الوطنية العربية ، هو كيان اعرج أبتري ، وان كل دولة تبني أركانها لهدف ديني ، وعلى طريقة طائفية كاسرائيل مثلا ، هي دولة فاشلة ، تحيى الظروف وتميتها الظروف ، وتقويها المناسبات وتفنئها المناسبات ، وانها تحمل طبيعة فناء في ذاتها ، وسر زوالها بتكوينها .

ونصيحة اخيرة الى المبهورين بدعاية السوء ، الوجلين من العروبة ، نصيحة الى هؤلاء ألا تغرهم بهارج الاستعمار ، فسرعان ما يقلب لهم ظهر المجن ، ويتحول منهم اليهم اذا اقتضت ظروفه ومصالحه . وليعلموا ان كانوا غيارى على ابناء وطنهم ان العروبة اسمى درجات الوطنية وارقى مراقبها .

ان معركتنا مع الاستعمار هي المعركة الفاصلة معركة المصير الى الاجيال القادمة ومبدأنا الذي لا يتحول هو : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد .

المرأة والكهربة

• لدى المرأة من الامكانيات الطبيعية ما يندر توفره عند الرجل ، فاذا اختص هو بخصلة العنف فقد اختصت هي بخصلة العطف ، واذا كان واجبه الكسب . فطبيعتها الارضاع ، واذا اعتز وتباهى بأنه والد ، فانها هي الوالدة ، واذا صغر خده وشمخ بأنفه بأنه أب ، فيكفيها فخراً انهما ام ، واذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

• في القرن السابع للميلاد تندى قطر من صحراء العقائد ، وأطلت الشريعة الاسلامية كالطل على المرأة وتعهدتها بالعناية والرعاية ، وما من نظام تحت السماء انصف المرأة وناصرها وحررها مثل النظام الاسلامي .

• لقد اعطيت المرأة في الاسلام من الحقوق والامتيازات ما يجعل المطالبة بالمساواة بينها وبين الرجل ، وهماً من الاوهام ، وفرضت على الرجل من الواجبات والاعباء ما يجعله هو في موقف لا يحسد عليه .

تعتبر مشكلة حرية المرأة من أخطر مشاكلنا الاجتماعية ، وتحتل حيزاً كبيراً من تفكير ساستنا وحكامنا وذوي الرأي فيها . ولا غرو في ذلك ، فالمرأة نصف الأمة ، ومن اهم العوامل الفعالة في بناء المجتمع وخدمة الانسانية .

ومن المؤسف ان يكون تاريخ الامة العربية في العصور القديمة قد عبس للمرأة ، وتولى عنها ولم يبتسم لها ، وانما حفلت تلك العصور بامتهانها ، ودأبت على ظلمها ، وسارت على سنة إذلالها وعدم الاحتراف بها ، شأن كل امة لا تزال في دور الطفولة .

الموأة الجاهلية

هذه المرأة ، التي تشغل اليوم نصف العالم ، وتملك ناصية التاريخ ، كانت في العصور القديمة للامة العربية ، سقطاً من المتاع ، ولوناً من ألوان الزينة ، ونوعاً جديداً من أليف الحيوان . ولم يعترف العرب الاولون لها بأبده صفاتها : صفة الانسانية . فاشتركوا في الزوجات مثلما كانوا يشتركون في الاموال والمتاع ، حسبما روى الجغرافي اليوناني (سترابون) .

واوضح دليل على ذلك ، بقاء بعض التقاليد الشاذة في الزواج عندهم ، حتى ظهور الاسلام ، كزواج الرهط : وهو ان يتزوج رجال عديدون امرأة واحدة . وزواج الاستبضاع : وهو ان يدفع الرجل زوجته الى عظيم او امير ليستولدها رغبة في نجابة الولد . ونكاح السفاح : وهو الزنى المعروف . ونكاح البدل : وهو ان يستبدل كل من الرجلين حليلته بحليلة الآخر ... الى غير ذلك من الانكحة الشاذة الفاسدة ، مما يعتبر دليلاً واضحاً على ظلامية الحياة الاولى عند العرب .

ثم دار الفلك دورته ، ومشت الايام خطواتها ، وقام العرب بنهضة عظيمة ، تشبه نهضتهم في صدر الاسلام - مع الفارق - وسكنت ديمة هذه النهضة شآبيب الرحمة على المرأة ، وتلفتت الامة العربية على تلكم الزهرة الممتهنة ، وتنسمت عبيرها ومدت اليها يد العناية ، لا يد الاستعباد ، ولحظتها بعين الرعاية لا بعين السخط ، وأصاب المرأة العربية من هذه النهضة نصيب وفير .

المرأة والشرائع القديمة

منذ نيف وأربعة آلاف سنة ، قبل ميلاد السيد المسيح ، جاءت شريعة حمورابي العربي ، وهو الذي يعتبر في نظر فقهاء القرن العشرين أول المشتريين . جاءت ومنحت المرأة العربية رغم اعترافها بسيادة الرجل كثيراً من الحقوق ، واسبغت عليها وإبلا من النعم لم تكن تتوفر لها من قبل ، إذ حددت سلطة الرجل العائلية في الأحوال الشخصية ، وعاملت المرأة بشيء من العدل والرحمة في باقي الحقوق العامة : فأباح لها مزاولة الشؤون التجارية والأعمال الزراعية ، والانتظام في سلك الكهانة ، فضلاً عن إشغالها المنزلية .

كيف تساوي المرأة الرجل ؟

وهكذا أضحت المرأة في هذه الناحية نداً للرجل ، ومساوية له تقريباً .

ولا غرابة في ذلك ، فهي نصف الأمة ، ولديها من الامكانيات الطبيعية ، ما يندر توفره عند الرجل ، فإذا اقتص الرجل بخصلة العنف ، فقد اقتصت المرأة بخصلة العطف ، وإذا كان واجبه الكسب ، فطبيعتها الارضاع ، وإذا اعتز وتباهى بأنه والد ، فإنها هي الوالدة ، وإذا صغر بخده وشمخ بأنفه بأنه أب ، فيكفيها فخراً أنها أم ، وإذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

هذا ما تسلمت به المرأة العربية . وما مكنتها يومذاك من مشاركة الرجل في الحقلين المادي والاجتماعي ، بل زاحته في الميدان السياسي وزحزحته عن أرائك الحكم .

والتاريخ العدل شاهد وصدق راوية . فقبل ميلاد السيد المسيح ببضعة قرون تلقى شلمنصر الثاني الولاء والاحترام من ملكتين عربيتين ، ونصب امره عندك

على احد العروش اميرة عربية ، والسطر الذهبي الذي سجل في تاريخ اليمن ،
انما سطرته يد امرأة ، والسعادة التي رفلت بها الارض السعيدة انما هي من صنع
امرأة ، انها بلقيس التي ورثت عن ابيها عرش اليمن لثلاثين عاماً تقريباً قبل
المسيح ، وكانت مثال الحاكم العادل النزيه ، احسنت في الادارة اشد الاحسان
وابدعت في التنظيم ما شاء الابداع ، ووطدت دعائم امرها ، ورثقت عرى ملكها ،
وخلفت وراءها كثيراً من الرجال في الميادين التي يزعمون انها وقفت عليهم وملك
لهم ، ووصفها المدهد لسليمان حسبما ورد في القرآن : (فقال احطت بما لم تحط به ،
وجئتك من سبأ نبأ يقين . اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها
عرش عظيم) .

وكان في ركبها حينما سارت الى سليمان مائة الف من الفرسان ، وكان من امرها
معه ، ما سجله التاريخ وايدته السماء . فقد استبدلت بدين ابيها دين الله ، وقوضت
في البلاد عمدة الفوضى ، واقامت بنيان النظام وظللتها بظل من الأمن والسلام .

ومع ذلك لم تنفرد بلقيس في موكب الفخار ، ولم تنسجم وحدها القمة بين
النساء العربيات ، بل شاركتها في ذلك ملكة عربية اخرى لها عظمتها وقدرها ، تلك
هي زنوبيا ملكة تدمر ، التي عوزها صلابة الرأي ولا مضاء العزيمة ، ولم تنقصها
قوة البأس ولا متانة الشكيمة ، بل قامت تثبت للتاريخ ان المرأة التي تهز بيضاها
سرير الطفل ، تستطيع ان تهز بيسراها العروش والممالك ، انتصت زنوبيا البرهان
نفسه الذي يظن الرجل به نفسه فوق المرأة ، انتصت السلاح وأخضعت كثيراً من
الممالك ، واقتحمت كثيراً من البلاد ، واقتحمت كثيراً من العقول .

ولكن سرعان ما تبدلت الاحوال ، فبعد ان تبوأَت المرأة العربية مكاناً باذخاً ، وبلغت
عزاً شامخاً في ايام العرب البائدة من عمالقة العراق ، وفراعنة مصر ، وعاد وثود في
اليمن ، انقلبت الى ما بدأت به من البداوة والجهل ، وخسرت عن مكانها الرفيع الى ما
كانت عليه من الذل والضعفة ، وحيل بينها وبين اهدافها ، وقلبت لها الايام ظهر
الجن . فغلبت على امرها ، وتحكم الرجال بها وتحيلوها متعة للرجل . وزعموها

دمية من دمي الله ، أو وسيلة من وسائل التسلية ، وليت غيهم وقف عند ذلك ،
وليت طغيانهم لم يتجاوز حده ، فانهم تجرأوا على الله تعالى وسلبوا المرأة انسانيتها ؛
بل سلبوها الحياة ، وفي هذا يقول مناظر امرئ القيس معبراً عن شعور قومه ،
مفصلاً عن وجهة نظرهم :

فإن قسألوني بالنساء فاني	بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله	فليس له في ودّه نصيب
يردن ثراء المال حيث علمه	وشرح شبابٍ عندهن عجيب

كره البنات

ولمنزلة المرأة الوضيعة ، كانوا في الجاهلية يتعضون من ولادة البنات بل كانوا
يستترون اذا ولدت لهم بنت ، حياء من القوم ، كأنهم ارتكبوا عاراً أو اقترفوا
جريمة ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم بقوله :

(واذا بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم
من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون !)

الحجاب

اما الحجاب بمعنى ستر الوجه — فقد كان قائماً عند كثير من قبائل العرب في
الجاهلية ، واخبارهم تؤيد وجوبه ، واشعارهم لم تخل من التصريح بوجوده ،
وفي ذلك يقول الربيع بن زياد العبسي في رثاء مالك بن زهير :

من كان مسروراً بقتل مالكٍ	فليأت نسوتنا بوجه نهار
يحد النساء حواً يندبنه	يلطن أوجهن بالاسحار

قد كنَّ يخبئن الوجوه تستراً فالיום حين برزن للانظار
يضربن حرَّ وجوههن على فقى عنف الشمائل طيب الاخبار

على ان الرجال كانوا يتعففون عن مغازلة النساء ، فلا يحاولون متى خرجن ان يتبعوهن بأنظارهم ، بل كانوا يفاخرون بغض النظر عنهن ، ولئلا هذه الحالة اشار عنثرة بقوله :

واغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

تعدد الزوجات

اما من حيث تعدد الزوجات في الجاهلية ، فلم يكن عند العرب حد محدود في الزواج ، وقد يتزوج الرجل امرأة ابيه بعد طلاقها او موت ابيه ، ومن فعل ذلك عمر ابن امية بن شمس ، ولما كان الزواج عندهم سهلا لكثرة انواعه ، فقد كان الطلاق مثله في السهولة ، ولكن على غير حد وبدون نظام يكفل حق المرأة ، بل كان الرجل يضارها في الطلاق ما شاء له ان يضارها واذا مات لم يكن لها نصيب الارث ، وكيف ترث وهي في نظرهم من جملة المتروكات . وكان كل ما يصنعه الرجل بها ، انها ان كانت جميلة تزوجها ، وان كانت غير ذلك حبسها حتى تموت فيرثها .

هذه هي حال المرأة الجاهلية ، مبتدلة متهنة ، لا يقيم لها وزن ولا يعترف لها بحق ، كانت تشتري وتباع كالسلعة والمتاع ؛ وكانت تورث ولا ترث ، وتملك ولا تملك ، كما كانت مراهقة بظلم الرجل ينتقص من انسانيته ، ويتصرف باموالها وممتلكاتها .

واختلف الناس ايام الجاهلية فيما اذا كانت المرأة انسانا او غير انسان ، وفي كونها تلقن الدين ، وتصح منها العبادة ام لا ، وفي كونها تدخل الجنة وملكوت السماء ام لا ، ولم يكن هذا حالها عند العرب في جاهليتهم فقط ، بل كان كذلك في اوروبة

يوم كانت اوروبة تعيش في ظلام دامس ، ويوم قرر احد المجامع بروما ان المرأة مخلوق شرير يجب ان يعامل معاملة الحيوان . ولعل فرنسا هي اول دولة في العالم ايام الجاهلية ، عملت على انصاف المرأة ، حيث قررت بعد ولادة محمد و قبيل بعثته ان المرأة انسان ، الا انها خلقت لخدمة لرجل .

انقاذ المرأة :

وفي وسط هذا النظام الجاهلي المليء بالمآسي المضطرب النظام ، تلفتت المرأة العربية التي هاضها الالم ، وبهظها الاضطهاد واثنخنها الذل ، الى ما يحقق كامل انسانيتها او يقللها من عثرتها ويتبنى فكرة مساواتها ، فاذا بمحمد بن عبد الله ترسله القدرة الى هذا العالم المضطرب ، ليحد من طغيانه ، ويخفف من غلوائه وهيجانه ، فقرر للمرأة على الفور ، كامل انسانيتها وحريتها ، وساواها بالرجل في النفس والجاه والكرامة ، وبذلك رفع عنها تلكم الأصار ، وحررها من قيود الذل والاستكانة والهوان ، ونزل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كثرهن ، ولا تعضلوهن لتذهبن ما بيعن ما آتيتهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

معطيات الاسلام للمرأة :

كفل الاسلام للمرأة العربية حرية التصرف ، وابعاح لها ان تملك العقار المنقول ، وان تهب وتشترى وتبيع ، وان توصي وتقاضي كما تريد ، على حين ان الدول الكبرى وصاحبات الدعوة الى حرية الشعوب ، لم تتوصل الى ما وصل اليه الاسلام فيما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا في مستهل القرن العشرين .

اعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التي اعطاها للرجل ، مدنية كانت ام سياسية فلها حق العمل بزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ، ولها حق الانتخاب ، والتمثيل النيابي والبلدي والاداري ولها ان تتولى مناصب القضاء .

ففي عصر العباسيين تبوأَت شجرة الدر عرش مصر ، وكانت ام المقتدر رئيسة لمحكمة الاستئناف ببغداد . وقصة ام المقتدر قصة المرأة الطموح التي اولدتها الاقدار ملكاً على عرش بغداد ، وكان التاج على رأس وليدها بيد ان السلطة كانت طوع يدها ، وتاريخ هذه الام الملكة هو تاريخ المرأة المكافحة ، التي حاربت بطانة الشر باعمال الخير ، وحاشية السوء بمكر الداهية ، وثبتت الملك تحت قدمي طفل ، ما عرف عرش بغداد اشد هواناً منه ، مدة خمس وعشرين سنة . فضلاً عن ركاكته واسفاهه ، فضلاً عن مجونه وعبثه ، فضلاً عن خفته وهزاله . ولقد سطرت هذه المرأة مع الزمن قصة الطيبة والدهاء، والغدر والوفاء، وقصة السياسة في احلك لياليها واظلم عهودها .. عهد المقتدر .

ام المقتدر ! وما ادراك ما ام المقتدر؟ انها جارية من ذوات الدل والجمال ، ومن اولئك اللواتي تجتمع لهن راحة العقل وصباحة الوجه ، ويدخلن التاريخ من قصور العظماء . فيهن ظرف وكآل ، يقرضن الشعر ويروين الطرائف ، ضالعات بالآداب عالِمات بالقوانين ، يجمعن الى طريف الخبر معسول القول ، ويضفن الى ذلك دراية باصول الطرب وسحر الغناء .

أم المقتدر .. واي خليفة ؟ انه الصبي المقتدر ؛ لها في كل امر شأن ، ولها في كل قضية حكم وميزان ، ترعى الامور صغائرها وجلالها ، واي غرابة في ذلك ، فالخليفة نفسه صغيرها ووليدها ، ترفع من تشاء وتضع من تشاء من امور هذه الدولة البعيدة الاطراف . باشارة من بنائها المخضب ، او رنوة من طرفها الكحيل ، ينعزل وال من الولاة ، وينصب قاض من القضاة ، ويقوم قائم بغداد ويقعد قاعدها اذا رغبت السيدة (شغب) ام المقتدر .

من ذا الذي يعتصم به المغضوب عليهم من الامراء ، ويؤوبون اليه ويرومون

جواره، ويرجون شفاعته،؟ انها ام المقتدر، ومن لقلوب الملوك - وهي كالبارود سريعة الغضب، شديدة اللهب - من الذي يطفىء لهيبها، ويكبت سخطها؟ انها ام المقتدر.

العدل والفوضى امران لا يستويان، غير ان ام المقتدر وقرت العدالة في الضوضاء، ونشرت السلام في ارض البغضاء، واستوت في كرسي القضاء، وفصلت الخصومات، وازالت العداوات، فكان لها مجلس في كل يوم جمعة، تنظر فيه امور الناس، وحوها الفقهاء والعلماء والقضاة والكبراء، تدهشهم جرأتها، ويأخذهم علمها وفضلها، ويعجبون لبعدها نظرها، وصدق حكمها، وسعة افقها.

وعلى كثرة كتب التاريخ وحيدة السنة المؤرخين، لم يقل واحد منهم ان ام المقتدر حكمت فظامت، ولا سطر احدهم انها قضت بغير حق، بل صمتوا امامها صمت ابي الهول، وسكتوا سكوت الليل، وما من قوة اخرستهم واجمت السنتهم الا الحق. فاكتفوا بالقول: ان ام المقتدر امرت ونهت؛ وتسمنت مركز القضاء تحكم بين الناس، وتقضي في خلافاتهم، وتوقع العقاب وتفرض الحلول.

المرأة ومجالس العلم :

منح الاسلام المرأة حق الارشاد وحرية التعليم، وخصها بتزيد من العناية والاهتمام، وسوى في ذلك بينها وبين الرجل حيث ورد (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وورد ايضا (اطلبوا العلم ولو في الصين) والصين اذ ذاك وطن مشرك ملحد، فليس معنى طلب العلم فيها تعلم الحديث والتفسير والتوحيد والتجويد، والفقه واصوله، وانما معنى الحديث تعلم كل فن ضروري للحياة ونافع، وتقصي المعرفة منها بعدت منابعها.

وبذلك بلغت المرأة العربية في ظل الاسلام درجة اجتماعية رفيعة دونها مراتب النساء جميعاً، في انحاء العالم المعروف آنذاك، حيث لم يجد العلماء اى حرج في السعي الى امرأة لسؤالها عن حكم او فائدة، فهذه عائشة زوج النبي كان رسول الله ﷺ يقول في حقها: (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء).

وهذه زبيدة زوج الرشيد ، وسكينة بنت الحسين ، وشهادة فخر النساء ،
وبوران حرم المأمون ، وقطر الندى امرأة المعتضد ، وكثيرات غيرهن من فضليات
السيدات كن يجلسن مجالس العلم والادب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين
الشعراء والعلماء والخطباء .

المرأة والقتال :

اما في علم الحرب والجندية ، فقد ضربت المرأة العربية في صدر الاسلام المثل
الاعلى في الاستشهاد في سبيل العقيدة ونصرة الحق واعلاء كلمة الله ، ومن هاتيك
النساء العربيات اللاتي ابلين في الجهاد والانتصار على الاعداء عائشة زوج النبي ﷺ ،
واسماء بنت ابي بكر ، وحسانة النميرية ، ورابعة العدوية ، والحناساء . تلك المرأة
التي شهدت وقعة القادسية مع بنيتها الاربعة ، وخطبتهم تحضهم على القتال بخطبتها
المشورة المعروفة ، ولما بلغها نعيمهم جميعاً رفعت يديها الى السماء متضرعة قائلة
(الحمد لله الذي هرفني بقتلهم ، واسأل الله ان يجمعني معهم في مستقر رحمته) .

ولعل اعظم ما يجب الانتباه اليه ، ان المرأة العربية في عصر العباسيين كانت
تتلون بلون مغاير لما كان قبلاً ؛ بسبب دخول عنصر جديد على الحياة الاجتماعية
العربية هو الموالي . وتتميز تلك الفترة بازدياد الاهتمام بالادب والشعر والغناء
والموسيقى ، ونتيجة لذلك ، فقد تغلب الجانب الفني على حياة المرأة العربية ، وصادف
ذلك هوى ورغبة في نفوس الخلفاء والامراء ، الذين امتلأت قصورهم بالجواري
والاماء ، من كل صاحبة صوت وناظمة شعر أو قارعة دف ، أو ضاربة بوتر .

على انه مما يدعو الى الاعجاب ايضاً ، ان المرأة العربية في العصور الاسلامية
الزاهرة ، لم تقتصر على تعلم العلم وتعليمه للمبتدئين فحسب ، وانما زحفت الى
مركز الاستاذية حيث جلس امامها شيوخ كبار ، يلتمسون الاستماع اليها أو القراءة
عليها او الاجازة منها ، واستمرت حركة التحرر في البلاد العربية سائرة على غاية
من الدقة والانتظام ، حتى حل بالشرق الأدنى ما عكر صفوه ، وقلب من جديد

اوضاعه ، وانتهى الامر الى العثمانيين الذين كانوا اكثر ميلا الى الحياة العسكرية منهم الى الحياة المدنية المرفهة .

وعندئذ اختفى ويا للأسف على ايديهم ما لنا وترعرع على ايدي سابقهم ، فارتدت المرأة العربية على أعقابها ، ورجعت القهقهري الى عصور الظلام ، واحتجبت نهائياً عن المجتمع ، واقتصر نشاطها على كونها امّاً وزوجة وربة بيت وحُرمت من مشاركة الرجل نشاطه في مضمار الحياة الى ان ظهر عامل جديد في الميدان ، تأثر الشرق به .. ذلكم هو النهضة الاوربية الحديثة .

اوضاع المرأة الحديثة :

هذا عرض موجز جداً لوضع المرأة العربية في التاريخ والاطوار المتناقضة التي مرت بها عبر العصور

ومما تقدم يتبين لنا ان الـ ... قد توصل منذ زمن بعيد الى ما يطالب به المجددون اليوم ، وهو تحرير المرأة وتحقيق المساواة الفعلية بينها وبين الرجل لأنها شريكان في الانسانية . وكلمة الانسانية مأخوذة منهما جميعاً . واذا كانت المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات ميزة ظاهرة تطبع العصر الحديث في البلدان المتقدمة التي تستمد لغاتها لفظ الانسانية من الرجال وحدهم دون النساء حيث يقال مثلاً : (Humanité) مأخوذة من (Homme) وهو الرجل . فقد سبق الاسلام كافة المبادئ وحقق المساواة بين ابنائه الذين تستمد لغتهم لفظ الانسانية من كلمة انسان ، ألا وهو مجموع الرجل والمرأة ،

واجب الدول العربية

واذا كان الناس لا يريدون تطبيق نظم الاسلام لغيرة او لغرور ، فخليق بهم

ان ينهجوا شرعة الامم المتحدة التي تقرر المساواة بين الجنسين، حيث تصرح المادة الاولى من مبادئ وأهداف هيئة الامم المتحدة في « سان فرانسيسكو » بأنها تعمل على اشاعة وتشجيع الحقوق البشرية، والحريات الاساسية لكافة الناس دون ما تميز بين الاجناس واللغات والاديان او تفريق بين الرجال والنساء ، وحسباً تنص المادة الثامنة من هذه المبادئ (بان المنظمة لا تفرض اي قيد يحد من دخول الرجال والنساء ضمن شروط متساوية في جميع الوظائف رئيسية كانت ام ثانوية) .

نحن المساعين من انصار المساواة الحقيقية ، لا الوهمية ونحن ندعو ونعمل من اجل تحطيم القيود التي تكبل المرأة ورفع السدود التي تحول دون دخولها الحياة العامة . ونحن واثقون انه لن يأتي اليوم الذي تصبح الأمة العربية فيه سيدة نفسها واثقة من مستقبلها ، آمنة على كافة حقوقها ومصالحها الا حين تصبح المرأة العربية بالذات ، عضواً صالحاً في المجتمع ، وتستقل فكراً وعملاً ونزعة . وتشعر انها انسان لها حقوق الانسان ، وتعمل وتجد وتصبح مواطناً سعيداً منتجاً حراً بكل معنى الكلمة .

ماذا نريد للمرأة :

الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية ، واذا كانت المرأة العربية في ظل الاسلام قد حصلت منذ خمسة عشر قرناً تقريباً على كثير من الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية الا في اوائل القرن العشرين، فان المرأة العربية اليوم لم تستفد من احكام الاسلام شيئاً، وواقعها واقع لا تحسد عليه ابداً لان اولي الامر وكثيراً ممن ينتسبون الى الدين الاسلامي ظنوا ان الاسلام ظلم المرأة وسلبها حقوقها ، مع العلم بأن الاسلام اعطاها من الحقوق، وفرض على الرجل من الواجبات ، ما يجعله هو في موقف لا يحسد عليه، وما جعل بعض الظرفاء يطالبون للرجل بمساواته مع المرأة لما لها عليه من امتيازات .

ميراث المرأة :

في القرن السابع للميلاد تندئى قطر في صحراء العقائد ، وظهرت الطمأنينة والسعادة في ضوضاء العرب ، واطلت الشريعة الاسلامية كالطلل على المرأة المسكينة وتعهدتها بالرعاية والعناية، ولم تبخل عليها بالعناية، وجعلت لكل من الذكر والانثى نصيباً معلوماً من ارث المتوفي (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب) . هذا هو الحق المعلوم الذي تفرضه البنوة على الابوة ونعمة الخير القائمة الاثر بين المولود والوالد ، والذكرى لامتوت بين الولدان في مراحمهم وقصورهم ، والآباء في رموسهم وقبورهم ، وهذا النصيب القائم لا يتواضع أو ينكمش ان تواضع الوارث وصغر ، ولا يتضخم ويطغى ان عظم الوارث او كبر ، لا لشيء الا لانه حق ، وسيان في ذلك حق الامير والحقير ، وحق الكبير والصغير وحق الوزير والحقير ، وما ذلك الا طاعة للقسمة الربانية (فريضة من الله وكان الله علياً حكماً) ،

اقام الاسلام للارث قواعد لا تحيد وما على الناقد البصير والباحث العدن ، الا ان يلحظ المزايا العظيمة لميراث في الاسلام ، والتي تنطوي عليها مصالح العباد او يتم بها نظام الحياة .

ألم تتهاجم الاشتراكية على اختلاف اقسامها وكثرة وجوهها - وبرزها اشتراكية سان سيمون - النظام الارثي الذي اثبتته الاسلام ؟ ألم يحدد القانون اليوناني والروماني حق القرابة وجاء الاسلام فأثبتته ؟ ثم ألم يكن نظامه المتبع في التوزيع والتركة حسب السهام ، ووضع الانصبه ، فتحاً في عالم التنظيم والابداع تفرد به دون سواء من الشرائع والقوانين تلتكم الشرائع التي كانت تفرق ... بين الارشد وغير الارشد في ميراث الذكور ، وجاء الاسلام فسوتى وعدل ، والتي كانت تميز بين البكر وغيره وجاء الاسلام فقوّم واقسط ؟

وجهاً لوجه مع المتهجمين :

وان الاسلام لايساوي المرأة بالرجل فقط بل يرفعها ويدنيه ، ويسعددها ويشقيه ،
وما من امة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المرأة ، وقررت حقوق المرأة ،
وحررت المرأة ، مثل الامة العربية .

وفي ذلك يقول فون كرومر (إن العرب كانوا مفطورين على احترام النساء ،
ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم) .

واذا كانت ارادة الله قضت علينا اليوم ان نصبح في مؤخرة الشعوب ، بعد ما
كنا في مقدمتها ، نتيجة جمودنا وتخاذلنا ، فانه يجب علينا ان نعمل في ثنايا هذا الظلام
الدامس الى نشر ما فطرنا عليه ، من احترام النساء ، وان نؤمن بأن التاريخ يجب ان
يعيد سيرته ، وان الديموقراطية يجب ان تسود ، وان المرأة العربية يجب ان تتحرر ،
وان المبادئ الانسانية يجب ان تعم وتنتشر (١) .

(١) راجع مؤلفات الاستاذ محمد جميل بيهم حول المرأة .

لبنان

إخاء بين المسيحية والإسلام

● يعتقد الاستعمار ان باستطاعته البقاء في لبنان ما دام فيه داء الطائفية ، ولذلك فهو يستخدمها في كل مناسبة للسيطرة .

● ان الدول الكبرى كانت تتقاسم الطوائف اللبنانية ، فهذه كانت تنعم بمحظف فرنسا ، وتلك تساعد بريطانيا ، والثالثة تنسجم مصالحها مع مصالح امريكا .

● حان الوقت لكي يعلم جميع المعنيين بأمر الطائفية ، ان المسيحيين ليسوا غرباء عن هذه الديار ، وان المسلمين ليسوا دخلاء عليها ، وان «استحالة الحياة» بين هاتين الطائفتين في وطن واحد.. اصبحت نوعاً من «الخرافة» بفضل الوعي العربي .

السلم والسلام وكل ما يتفرع منهما ، ويحتمل الحياة بحقائقهما وينسب اليهما : من المبادئ الاساسية التي قامت عليها رسالات السماء عامة ، وحملت لواءها المسيحية والاسلام بصفة خاصة .

فاما المسيحية فرسالتها الحب وطريقها الاخاء وغايتها السلام ، وشعارها المصوغ من هذه المثل الرفيعة : « المجد لله في الاعالي وبالناس المسرة وعلى الارض السلام » .

واما الاسلام فهو مرادف « السلام » وقرينه في الاشتقاق من مادة « سلم » وضريبه في امتناع الكون بالسلامة في الابدان والانفس والاموال .

من اجل ذلك كانت تحية ابناء الاسلام عند اللقاء « السلام » ووداعهم عند الفراق « السلام » واسم الله عندهم : السلام ، واقدس لياليهم ليلة القدر التي انزل فيها القرآن تميزت بالسلام « سلام هي حتى مطلع الفجر » .

فاذا كان هذا شأن الديانتين اللتين تنتسب اليهما الكثرة الغالبة من ابناء لبنان ، فكيف يعتبر التعايش السلمي بين اتباع ديانتى السلام قضية تحتاج الى اثبات ؟ أو مشكلة تتطلب العلاج ، او غاية يسعى اليها الاحرار والمنصفون من قادة الوعي في لبنان ؟

ان التعايش السلمي بيننا هو نتيجة حتمية لكوننا مسيحيين ومسلمين ، وهو الثمرة الطبيعية لانتسابنا الى المسيح — وهو رمز الحب والتسامح بين الناس سواء منهم المحبون والكارهون — والى محمد الذي يقول الكتاب الذي انزل عليه « ولا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » والتعايش السلمي بديهة من البساطة بحيث لا تتطلب ارادة بحث ولا تقليب رأي ، للوصول الى اتفاق عليها أو الالتقاء حولها ، وهو كذلك حقيقة واقعة تشكل الطبيعة الصحيحة التلقائية لحياتنا الاجتماعية ، كما يشكل الجريان طبيعة الماء ، والمحبوب طبيعة الهواء ، والتنفس طبيعة الحياة في الانسان .

التعايش تجسيد حقيقة قديمة :

ومع ان التعايش السامي تعبير حديث ، فهو تجسيد لحقيقة قديمة اراد المستعمر ان يطمسها ويشوهها ، ليتاح له أن يتسلط وان يمد سيطرته ويوطد نفوذه .

فمنذ الرومان كانت القاعدة الاستعمارية « فرق تسد » هي « التكتيك » الناجح الذي يلجأ اليه المستعمرون لتحقيق النزاع بين طبقات الأمة ومختلف فئاتها ، يضربون بعضهم ببعض ، ويخرضون هذه على تلك ، ويشيرون المخاوف في صدر الواحدة تجاه الاخرى ليخلو لهم الجو ، وليأمنوا اتحاد هذه الفئات جميعاً ووقوفها في وجه الدخيل واطمائه ، والطغيان الاجنبي وشروعه .

وكلنا يعلم ان كثيراً من بلاد الله كانت ميداناً تطبيقياً لهذه القاعدة ، فاهند مثلاً لم تعرف الاستقرار في عهودها الذليلة ، لان الاستعمار حرّم عليها الاستقرار ؛ ولأن وسيلته الى غايته ، كانت في خلق نوع عنيف من الصراع المفتعل بين فئات الوطن الواحد بل على التحديد بين الهندوس والمسلمين .

الهندوسي يقدس البقرة ، والمسلم يعتبرها من الحيوانات التي خلقها الله لخدمة الانسان ، ورغم ذلك فان نوعاً من الاتفاق الضمني والتعايش السامي كان قائماً بين التفكيرين ، فلا الهندوس يفرضون على المسلمين عبادة البقرة ، ولا المسلمون يطلبون الى الهندوس ان يتنازلوا عن عقيدتهم ، باعتبار ان العقائد الدينية ليست الا جزءاً من حرية الفرد الشخصية وحرية تفكيره .

وعندما كانت الاصطدامات تقع بين المسلمين والهندوسيين ، كان المستعمر حابك المؤامرات هو الذي يشعل نار الفتنة ويحرك شيطانها ، وهو الذي يفتعل السبب للالتحام ، ليصرف المواطنين عن هدفهم الاصيل الذي يسعى اليه القادة المخلصون .. الا وهو النضال الدائم المستمر لطرد الاجنبي واثنااع جذور الاستعمار من ارضهم .

وكان هذا الدخيل ينبري حين تقع الواقعة ليذيع على الدنيا انباء الفتنة مكبرة مضخمة ، وليظهر للعالم ان الهند غير جديرة بالاستقلال ، وان وجوده فيها وبقائه على ارضها ضرورة حيوية لاقامة السلم بين فئاتها ، وانه لولا تدخله لطغت فئة على اخرى وافنتها في حرب اهلية ضارية لا ترحم .

وكان بعض السذج يصدقون هذا المنطق ، ولكن الذين لم يكونوا يصدقونه هم الواعون المخلصون الذين آلوا على انفسهم ان يفضحوا الاستعمار ، وان يدحروه وان يفسدوا عليه خططه .

وبالفعل فلقد استمر نضالهم وامتد الى ان وجد الاستعمار نفسه عارياً من كل هيبة ؛ مجرداً من كل نفوذ ، والى ان تحقق ان اساليبه في تفريق الصفوف وتأريث الاحقاد، لا يمكن ان تحمي مصالحه ، فاضطر الى ان يغادر الهند وفي نفسه الحسرة والكمد ، وعلى مفرقه عار الزمن وسبة التاريخ .

تجربة الاستعمار في البلاد العربية :

لم تنج بلادنا العربية من ان تكون حقلاً للتجزئة ، فالاستعمار اياه حاول خلال فترة طويلة من الزمن ان يزرع الفتنة في مصر ، كما حاول ان يحمل بذورها الشريرة الى سوريا ، ولكنه كان ينتهي دائماً ذليلاً مدحوراً ، تفضحه عيون الوطنية الساهرة وتكنس آثاره طاقات الوعي التي تتفجر في دنيا العرب ، كلما طاب لمستعمر ان يتحدى ارادة شعبنا العربي ويتسلل الى صفوفه .

الطائفية سلاح الاستعمار :

واما لبنان فقد كان له النصيب الاوفى من دسائس المستعمر وقتنته ، وكانت الطائفية هي السلاح الذي يمتشق في كل مناسبة ، بسبب تعدد ديانات سكان هذا

البلد واختلاف عقائده ، وكان الطمع بلبنان يستند الى اسباب كثيرة ... اهمها ان هذه البقعة من الارض هي المنفذ الطبيعي لبقية البلاد العربية ، فالسيطرة على لبنان تسهل السيطرة على سورية والارن والعراق ، ومن هذه البلاد كلها يمكن السيطرة على مصر وقناة السويس .

كما ان الاستعمار بسبب تعدد الطوائف اللبنانية ، كان وما يزال يعتقد ان باستطاعته ان يلعب ورقة الطائفية في اي وقت شاء ، ليحقق اطمائه في الاستيلاء على هذه المنطقة الاستراتيجية .

ومن هنا نشأت فكرة الحياد الايجابي ... الفكرة التي تحقق للعرب كسبين عظيمين : الاول استقلال بلاد هذه المنطقة وسيادة شعوبها ، وباستقلالها وعدم سيطرة احد عليها يتحقق الكسب الثاني والاهم الا وهو السلام العالمي . وهكذا نجد ان دور العرب في اقرار السلام العالمي هو دور رئيسي ، وكلما قويت جبهة الحياد الايجابي في العالم كلما ابتعد شبح الحرب الذرية التي تهدد الانسانية بالدمار والفناء .

الدول الكبرى تتقاسم الطوائف :

ومن هنا ايضا يتبين للمدقق اهمية الدور الذي يود الاستعمار ان يلعبه حين يحرك الطائفية ، ويستخدمها كسلاح فعال للسيطرة على لبنان . فهو يطلق الفتنة الطائفية حيناً بعد حين ، يطلقها بين المسيحيين والدروز وبين المسلمين والمسيحيين . حتى ليتمكن القول ان الدول الكبرى كانت تتقسم الطوائف اللبنانية ، لجعل الاستعمار - وهو قاسمها المشترك الاعلى - من لبنان مناطق لنفوذه .

فهذه الطائفة مثلاً ، تنعم بعطف فرنسا وتلك تساعد بريطانيا وثالثة تنسجم مصالحها مع مصالح اميركا ، وهكذا دواليك حتى اصبحنا في وضع دقيق جداً ، فلا يكاد يذنب بين شخصين من طائفتين خلاف بسيط حتى يتعالى الصراخ من كل جانب وتكال التهم جزافاً للدولة والكيان بأمره ، وتعاو اغمه مقيتة تسبح بحمد الاستعمار وضرورة رجوعه للتهذيب والحماية ونشر الخضارة .

وهذا ما حدث فعلا في عام ١٨٤١ إذ تشاجر درزي من بعقلين مع مواطن من دير القمر ، فاذا ببريطانيا تهب لنصرة الدروز ، وإذا بفرنسا تتجند لحماية المسيحيين وإذا بالعثمانيين يتجادبون الفريقين حفظا لكرامتهم كحاكمين شرعيين للبلاد وصوناً لنفوذهم الذي تهدده بريطانيا وفرنسا بتدخلها للسافر .

وليس جديداً بأن نقول بأن فتنة ١٨٦٠ الدامية التي وصمت حقبة من تاريخنا بوصمة مفتعلة ، ليس جديداً ان نقول بأن هذه الفتنة كانت من نتائج الدس الاجنبي الذي كان يقتعل الحوادث ، ليتدخل او ليحامي بعضنا من البعض الآخر على حد زعمه .

الهررة الثلاث :

ومن سوء حظنا ان الطامع بنا ، ببلادنا الخيرة ، بثرواتنا ، كان اكثر من واحد ، فاذا بنا كقطعة لحم طرية يتنازعها ثلاث هررة : الفرنسيون والانكليز والأتراك ، كل منهم يطمع ان يسيطر على مواردنا ، وان يستثمر خيرات بلادنا ، وهكذا فما كان ينشب خلاف عادي في سنة ١٨٦٠ حتى هبوا جميعاً يتنازعون على الغنيمة ويقتتلون في سبيل التفرد بها . وليس ادل على ذلك من سلوك العثمانيين في بلادنا . فالأتراك كمسلمين دخلوا البلاد كما هو معروف لحماية فئة معينة - ان لم يكن ذلك ظاهرياً فعلى الاقل بصورة ضمنية - ولكنهم ما كادوا يسكون بزمام الامور حتى اخذوا يحاربون الوعي وينشرون الجهالة ويسومون جميع الطوائف اشد انواع العذاب والتنكيل ، بما في ذلك المسلمين . ومن لا يصدق فليسال مشانق عاليه ، ومشانق بيروت ، وليستعرض اسماء الشهداء الذين علقهم السفاح التركي الغاشم ، وحينئذ قتبلى لعينيه حقيقة صارخة لا يمكن نكرانها ابداً .. وهي ان عناصر هذا البلد وفئاته على اختلاف عقائدهم لا تنساق لمطامع الاجنبي ، ولا تؤخذ بالأعبيه وأكاذيبه . ان مشانق جمال باشا السفاح لم تقف ولم تغف عن عنق المسلم لانه مسلم ولم تشد عنق

المسيحي لانه مسيحي ، بل اطبقت على اعناق النخبة من شباب الامة الذين تجرأوا وطالبوا بالحرية لبلادهم وبالكرامة لوطنهم .

داء الطائفية :

كما ان الدلالة التي تحملها تلك الكارثة دلالة عميقة المعنى تلامهم ، كل فاضل حجراً وتبرهن بأن الطائفية لم تكن يوماً ما حاجزاً بين نضال المسلم ونضال اخيه المسيحي اي ان نضال المواطن لم يتجزأ يوماً ولم يتلون بلون الدين وانما كان نضالاً مشتركاً ضد التحكم والتعسف والظلم والعدوان .

فداء الطائفية اذاً .. هذا المرض الخبيث الذي استشرى في جسم وطننا الحبيب واعبى علاجه نطس الطب وعلماء الاجتماع ، هو دخيل علينا ومستورد من الخارج . ان التدين في بلادنا قديم ولكن الطائفية مستحدثة ، انما في هذا الشرق حواريو الانبياء واتباع الاولياء ولكننا لم نغمس في الحقد الديني الذي يدعى « الطائفية » الا حينما جرتنا اليه اساليب الاستعمار واحابيل المستعمرين .

لا طائفية في الدين ولا دين مع الطائفية . هذا هو المبدأ الذي يجب ان يعتنقه المسلمون والمسيحيون في لبنان ، لان الدين رحمة للعالمين وهدى للناس اجمعين وهو شمس الله التي تشرق على الجميع ، وغيث الله الذي يحيي موات الخير في قلوب الجميع ، وشتان بين الدين وبين الطائفية .

لقد نظر القرآن الكريم الى جميع الاديان السماوية نظرة تمجيد وتكريم وخص المسيحيين بالذات حينما قال : « ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون » .

ولو اننا رجعنا الى صفحات التاريخ ، وقلبنا سير تراجم اعلام المسيحية والاسلام في العصور القديمة والحديثة لالفينا ميزة الحب والاخلاص والتسامح جليلة واضحة بينهم في اقوالهم وافعالهم وسائر شؤون حياتهم .

فمذا الخليفة المتوكل على الله العباسي ، حينما اراد ان يستوثق من امانة الطبيب الكبير حنين بن اسحق ويختبر درجة اخلاصه قبل ان يقتربه منه لينتفع بعلمه وخبرته ، راوده ان يضع له دواء مسموما ليقتال به احد اعدائه السياسيين وقال له : يا حنين ، اني اريد ان اقتل عدوي هذا قتلا قاحلا من غير ان يدري بذلك احد ، فأثني بما تدبره له .

ولم يكن الطبيب يعلم ان هذه تجربة له ليستوثق من امانته واستقامته ، مخافة ان تلعب بعقل الطبيب رشوة اعداء الخليفة فيقتله غيلة ، ومع ذلك فقد اجابه الطبيب قائلا :

ايها الخليفة ، انني تعلمت من العلم ما طاب ونفع ، وما عدا ذلك لاعلم لي منه ، فخيرّهِ الخليفة بين امرين : هدية سنوية ان لبي طلبه ، وان ابى فالسجن والموت ، فلم ينثن حنين عن عزمه ولبث في السجن حولا كاملا لم ينقطع خلاله عن التأليف والبحث .

ولما رأى الخليفة ان التهديد لا يؤثر في نفس ذلك الطبيب دعاه وقال له : يا حنين هديء من روعك واطمئن الى نفسك ، فقد صرت على يقين من حسن طوبتك وجعلتك طبيبي الخاص ، شريطة ان تخبرني عن سبب امتناعك عن تنفيذ ما اردت .

فقال الطبيب : انما كان ذلك لامرين : احدهما ديني فهو يمنعني عن كل ضرر الحلقه بأحد ولو كان عدوي ، وثانيهما صناعتي ، فلمها علي من الواجب ما يرغمني على فعل الخير بالناس .

وهذا الخليفة المعتضد العباسي يحاول ان يختبر مدى ايمان ابي قرة الصابئي وهل يبيع دينه بدنياه ، فعرض عليه أن يطعم مرة فولا ويأخذ الف دينار ، ومن المعروف ان الصابئة تحرم أكل القول فرفض الصابئي ذلك وقال له : لا والله يا

أمير المؤمنين ، لا اطعمه ابداً ولو وزنت لي ملء هذه الحجرة ذهباً ، فكان بموقفه هذا محلاً لرعاية الخليفة المسلم وحبه واحترامه .

وهذا المنصور بن ابي عامر الملك الاندلسي ذو الايمان الصادق واليقين العظيم ، ما كاد يزور مدينة سانتياغا البورتغالية ، ويزور ضريح يعقوب تلميذ المسيح عليه السلام حتى لاحظ بجوار الضريح راهباً منقطعاً لخدمته والعناية بأمره ، فسر الخليفة المسلم كثيراً واعتجبه من الراهب المسيحي ما رآه فيه من معالم الايمان والاخلاص ، فأعقد عليه عطاياه وبالع في اكرامه .

ثم هذا الخليفة العباسي المعتصم يبكي ويطول البكاء على طبيبه المسيحي المخلص سامويه ، لما عرف عنه من الصدق في الدين والاخلاص في العقيدة والاستقامة في العمل ، ودفعه وفأؤه له وحبه اياه الى استشارته عن الشخص الذي يحذر ان يسند اليه عمله ، فقال له سامويه : عليك بجنين بن ماسويه . ولما قضى سامويه نحبه امر المعتصم ألا يدفن حتى يصلى عليه في قصره صلاة الجنازة حسب الطقوس المسيحية ، ثم تقبل المعتصم التعازي واحجم عن الطعام اياماً حداداً على صديقه وطيبه سامويه المسيحي .

أما الرحالة ابن جبير ، فانه يذكر لنا في رحلته ان غليوم الثاني ملك صقلية كان معجباً بايمان العلماء المسلمين وكبير اخلاصهم ، فاتخذهم مرافقين له يمدون امامه طريق المعرفة ، ويدرسونه آداب اللغة العربية ، وكان يأتمنهم على كل خواصه حتى على طعامه وشرابه واسرارهم وقد نقش على خاتمه « الحمد لله وحده » .

ثم لم يكد ينتهي عهد الاتراك الاسود ، عهد الجوع والعري والتشرد ، عهد السفاح جمال ، حتى اطل علينا شبح استعمار جديد اخذ يتركز في ربوعنا .

ارض العروبة مهبط الرسالتين :

انهزمى المواطنون الاحرار ليقولوا للاستعمار ان افتراقنا في الدين الى مسلمين ومسيحيين ، لا يمكن ان ينال من وحدة البلد العربي الذي نشترك في شرف الانتساب اليه ، ونتقاسم خيره واجاده في اخوة صادقة ووحدة وطنية شاملة . ذلك بأن ارض العروبة مهبط الرسالتين المسيحية والاسلامية هي وطننا جميعاً ، نلتقي في ظله ونتعاون على اسعاده ، ونسير جنباً الى جنب في الدفاع عن مقدراته ، وتتعانق أشلاؤنا إذا جد الجد في ساحة الفداء له .

وما كان اختلاف الدين بين ابناء البلد الواحد عاملاً هدم أو تزهين في كيانهم القومي ، متى استوفى مقوماته من اتحاد اللغة والجنس والأرض والمصالح والآلام والآمال .

ولقد قام الوطن العربي في ظل بطل العرب الاكبر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه على اساس توافر هذه المقومات التي لم ينقص من اهميتها واثرها في تكوين الوحدة الوطنية ان يكون لابنائها يومئذ أكثر من دين .

نعم قامت دولة الاسلام — وان شئت قلت دولة العرب — الأولى في المدينة غب الحجرة ، فاذا دستورها المثالي كما تقرره صحيفة المودعة بين المسلمين واليهود ، يبسط جناح الامن والسلام والاخاء على اهل المدن جميعاً بدرجة واحدة مساواة تامة في الحقوق والواجبات لا يُلمح فيها ظل للتفريق بين المسلم صاحب الاكثية والرياسة ، بين اليهودي الذي يمثل الاقلية التابعة .

وهذا نقدم الدليل الحاسم على ان الدولة التي تقوم على التعصب وتبني سياستها على الاهواء الطائفية ، تكون قد نذت عن الناموس الطبيعي في قيام الدول وخرّبت الاساس الصالح الذي يحفظ عليها عنصر البقاء والاستمرار .

ومن هذه المغالطات التي تخلق نشوء الامم كانت دولة اسرائيل كياناً مزيفاً لا يمكن ان يعيش لانه قام على اساس ديني عنصري ، على شتات من امم مختلفة لا تجمع بينها وحدة تاريخ ولا وحدة مفسر .

وقال الوطنيون الشرفاء للاستعمار الفرنسي : ليس المسيحيون غرباء عن هذه الديار ، وليس المسلمون دخلاء على هذه البلاد ، واكتشف الاستعمار انه هو وحده الدخيل وانه هو وحده العلقمة التي تمتص دماء الشعوب والحشرة النهممة التي تأكل خيرات الآخرين ، وكان عليه ان يرحل وكان علينا نحن ان ندفع ضريبة الدم من جديد .

وحصدنا رصاص المستعمر الفرنسي دون ان يفرق بين مسلم ومسيحي ، واختلط دماء شهدائنا في طرابلس وصيدا وفي بيروت ومختلف المدن اللبنانية ، دماء مسيحية ومسلمة ، امتزجت لتصنع للبنان تاريخياً من العزة والكرامة والمجد ، تاريخاً بريئاً من العنعنات الطائفية . . من هذا الطاعون الوافد الذي لا يمكن ان يعيش في ارضنا ابداً . وهكذا جمعنا النضال ضد المستعمر الفرنسي مرة ثانية بعد ما جمعنا مشائق جمال باشا السفاح وكانت ثورة ١٩٤٣ التي سرنا في صفوفها مسيحيين ومسلمين ضد الاستعمار الفرنسي المسيحي مكاملة لثورتنا ١٩١٦ ضد الاستعمار العثماني المسلم . وحمل الفرنسيون تاريخهم الاسود ورحلوا ، فقبل انتهت فتن الاستعمار الطائفية في بلادنا ؟ لقد غادرنا جيوش الاحتلال وانتهى بخروجها عهد الاستعباد ، اما المؤامرات فلم تنته ولكن الشيء الأكيد الراجح هو ان الطائفية لم تعد ابداً لسوء حفظ المستعمرين السلاح الظافر او الورقة الراجحة .

محاولة اخيرة فاشلة :

لقد حاول المستعمر خلال فترة ما بعد الاستقلال ان يوقظ نار الفتنة اكثر من مرة ، ظناً منه ان اشعال نار حرب اهلية في لبنان بين المسيحيين والمسلمين هو خير

سيلة لتهديم الكيان وتقويض أركانه ، وخير حافظ لفئة معينة للاستنجااد بفرنسا وطلب حمايتها . وانه لمن المؤسف حقاً ان يكون في صفوفنا بعض التجار ، تجار الاديان والوطنية الذين كان همهم الأوحد ان يحققوا للاستعمار اغراضه وان يصبوا الزيت على الفتيل ليشتعل عند اول احتكاك .

هؤلاء التجار التزموا لآسيادهم اضرار النار ، وكانوا حريصين جداً ان يقوموا بالتزاماتهم ، ومن اجل ذلك دأبوا على حبك الفتن في الظلام ، وراحوا في كل مناسبة يشنون حرباً استفزازية كلامية تعلن ابواقها ما يلحق المستعمر لهذه الابواق من اضرار وتضليل ، ولكن الشعب المتراص المتكاتف عرف كيف يقابلهم في كل مرة بالسخرية والازدراء والاحتقار .

وقد اخذنا نلاحظ أن مروجي هذه البضاعة بدأوا يخطفون عن المسرح السياسي شيئاً فشيئاً ، لانهم باتوا يخجلون من وعي الشعب ، من النور الفاضح المسلط على مخازيهم . ولقد بدأت قضية استحالة التعايش بين المسيحيين والمسلمين في وطن واحد ، لقد بدأت هذه القضية تدخل في تاريخ الخرافة بعد ان حطم وعي الشعب إرادة الفريقين المعنيين هذا الادعاء المضلل .

ولم لا نقولها بصراحة ان التعايش السلمي بين المسيحية والاسلام ، هذا التعايش القائم منذ نشوء الاسلام ، اصبح في لبنان ضرورة كيانية ملحة لبقاء هذا البلد واستمراره . وهل يعيش الطائر بجناح واحد وهل يحيا الانسان برئة واحدة ؟

في كل يوم يقف اكثر من رئيس ديني مسيحي ليعلن للعالم حقيقة هذا التعايش وفي كل يوم يقف اكثر من رئيس ديني مسلم ليؤكد للملأ ان هذا التعايش لا يمكن ان يؤثر فيه دس ولا تضليل ، ولكن الاستعمار لا يكل ولا يمل ، انه يؤمن باخلاص فئة ضئيلة من المأجورين ، ويعتقد ان باستطاعة هذه الفئة ان تحقق له اغراضه وان توصله الى غاياته .

ولكن الاستعمار اصبح من البلاهة والخرف ، وقصور التفكير وبلادة الذهن لدرجة تحمل فعلاً على الضحك والسخرية ، لانه اغفل عامل الوعي ونسي ان كل لبناني اصبح يعرف تمام المعرفة ماذا تعني دعايات الاجنبي وانه امسى يعرف تماماً ان تحريض فئة على فئة لا يستفيد منه الا المحرض .

لقد صار بإمكان اللبناني ان يستخدم معرفته للتوصل الى حقيقة الامور وجوهرها ، وصار بإمكانه ان يميز الغث من السمين والحق من الباطل .

لقد تهدم جدار الرعب القائم بينه وبين جيرانه العرب ، واكتشف اللبناني ان المسلم في الجزيرة العربية مثلاً او في مصر او في العراق او في سورية او في الاردن ليس الا اخاً له ، يفتح له صدره ، ويقف الى جانبه ليشد ازره عندما تدعو الحاجة ، وان يفتح له فوق ذلك صدر بلاده يسرح فيها ويمرح ، ويشارك في خيراتها ويعمل على ازدهارها ويسهم في تطويرها وانهاضها . ولم يعد يرى فيه بالتالي غولاً يستعد لالتهامه كما تصوره الدعاية الاستعمارية ، ولم يعد يرى في جاره المسلم .. جاره في بلده ؛ قبضة مهددة تهم بالانقضاض عليه في اية لحظة لتؤذي به ولتقضي عليه وعلى كيانه الوطني .

لا حاجة لاثبات الاخوة :

اذا حاولت ان اعدد المواقف التاريخية والازمات التي مرت بهذا البلد واثبتت متانة الوحدة بين ابنائه ، وروح الاخوة بين طوائفه والتعاون المثمر بين عقائده اذا حاولت ذلك ، فاني لا استطيع احصاء تلك المواقف ، واذا اردت ان اعدد المحاولات اليائسة الفاشلة التي لجأ اليها الاجنبي وما يزال ليجعل من الطائفية مرتكزاً له في بلادنا ، واذا اردت ان اعدد ما اعوزتني المجلدات ، لان للاستعمار في بلادنا كل يوم محاولة ، واعتقد انه قد آن للاستعمار ان يفهم ان المسيحية والاسلام كديانتين سملويتين ليس بينهما اي خلاف أو صراع ، فالركائز الاساسية التي تقوم

عليها احداً - هي الركائز الاساسية التي تقوم عليها الاخرى ، ان الجوهر واحد والمثل واحد والغاية واحدة .

وكما فوتت وحدتنا بالماضي على المستعمر اغراضه واطماعه ، فان هذه الوحدة بالذات هي التي تفوت عليه اليوم ما يؤمل .

وحدة الوطن :

لقد آمنّا جميعاً بوحدة هذا الوطن ضد الخطر الاجنبي ، ضد الخطر الذي يحتم على صدرنا الجنوبية ... ضد اسرائيل التي تتربص الفرص السانحة لتتقضم على هذا البلد الآمن وعلى غيره من البلدان العربية ، فتتحقق احلامها في ملكك يشمل النيل والفرات ، وتتحقق اغراض المستعمر كقاعدة استعمارية في قلب منطقة الشرق الاوسط قاعدة ينطلق منها الى دول المنطقة بأسرها ليتحكم في مصائر شعوبها ، ويمتص خيراتها ويستغل انطاقات الخير الكامنة في ارضها .

لقد آمنّا بوحدة هذا الوطن كجزء من شعب عربي كبير ، تتآلف فيه المسيحيون والمسلمون ، وربطتهم عرى اخوة عريقة عبر التاريخ ، وصهرتهم آلام واحدة ، وجمعهم ماض وقارينيخ وحياة مشتركة ، ويجمعهم مستقبل واحد وآمال واحدة ومصير واحد . آمنّا بوحدة هذا الوطن ، بتآلف طوائفه ونحله من أجل غد زاهر آمن لابنائنا جميعاً ومستقبل مجيد لأجيالنا الطالعة .

ان التعايش السلمي بين المسيحيين والمسلمين في لبنان فضلاً عن كونه واقعاً ملموساً منذ اقدم الأجيال ، وحقيقة لا ينكرها الا مكابر ، فانه ضرورة كينونة ، ضرورة من اجل المثل العليا التي نؤمن بها جميعاً ، من اجل الأهداف المشتركة التي نؤمن بها جميعاً وهي الطاقة التي تمنح هذا البلد قوة الاستمرار ، وهي الرئة التي يتنفس بها ويعيش . فاذا لم تكن وحدة اللبنانيين من أجل جميع هذه المثل فلتكن على الاقل من اجل بقاء لبنان واستمراره .

هذا هو منطق الواقع والتاريخ ، في ضرورة التعايش السلمي بين المسلمين والنصارى في هذا البلد الحبيب . فهل آن لنا ان نسمع كلمة الدين الخالص ، كلمة التشريعات المذهبية الصرف ، كلمة الاسلام والمسيحية في إثبات هذا التعايش ، وتيسير اسبابه وإزالة كل العقبات ، التي يتوهم المفرضون والجاهلون ، انها تقوم في طريقه .

هذا صوت المسيحية الحبيب ، يطرق اسماع الدنيا كلها بترانيم المحبة ، ويجعل شعار اتباعه الرفق والرفقة ، وتثور آلام نبيه العظيم عليه السلام ، من اجل حماسة واحدة ؛ ويسط كف الصفح للمسيء فضلا عن الحسن ، حين يقول : « من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر » .

ويشغل كل انسان بعيبه حتى لا يأخذ الغرور فيتطاول على غيره ولو كان جديراً بأن يتطاول عليه !

ثم ان هناك موقفاً لروح الله المسيح عليه السلام حين اراد بعض اصحابه ان يرحم امرأة زانية فقال لهم « من كان منكم بلا خطيئة فليرحمها » فكف الناس ايديهم عنها .

ان ديناً هذا شأنه مع الخصوم وجيران السوء لا يمكن ان يرضى لابنائه ان تضطرب معيشتهم مع اخوانهم واحبابهم المسلمين .

اما صوت الاسلام الخالص فهو حقيقة التعايش السلمي بذاتها ، وهو الضمانات الكفيلة بامتداد طريقة رحبة فسيحة معبدة ؛ لا تعرف العقبات ولا تعرف المشكلة حتى تقدم لها العلاج فالاسلام يقرر الاكراد في الدين ، والرسول العظيم يكرم اضيافه من نصارى الحبشة حتى يقوم بنفسه على خدمتهم وتقديم الضعاف اليهم ، وعمر بن الخطاب تحضره الصلاة امام كنيسة القيامة فيخرج للصلاة بعيداً عنها رعاية لشعور النصارى وخشية ان يغلبهم عليهم المسلمون وهم في اوج الظفر

والانتصار ، والقرآن الكريم يضع المعابد على اختلاف اديانها في مستوى واحد من الاحترام ، ويبلغ من مجاملته للأديان السماوية ان يقدم معابدها على معابده في نسق الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

الا يحق لنا ان نقول ان الاسلام يتعصب لعقيدة المسيحية اكثر مما يتعصب لحماية اتباعه المسلمين؟ فهل لمكابر بعد ذلك كله ان يزعم ان اختلاف الدينين مانع من التعايش السلمي بين الطائفتين؟ .. « كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذباً »

واخيراً فلتنحن الرؤوس ولتخضع القلوب لصوت الوحدة الدينية والاخوة الاعتقادية بين الأديان السماوية جميعاً فنطلق به الآية الكريمة :

« شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

افتحوا باب الاجتهاد

● محاولة متواضعة من اجل تطور فكري موقب
نقدمها الى جميع العاملين في حقل الدعوة ؛ الذين نذروا
انفسهم من اجل اعلاء كلمة الله .

بعد وفاة الرسول ﷺ حمل اتباعه هدى الرسالة ، وانطلقوا في ارض الله ينشرون
عقيدتهم ويدعون لها ، ويحاربون بها حضارات الامم القديمة ، وهي حضارات عريقة
ثابتة الاصول سامقة الفروع ، وكان لا بد لهم من ان يواجهوا مشاكل جديدة لم
يكونوا ليعرفونها في اطار مجتمعاتهم الصحراوية ، وان كان كتاب ربهم وسنة نبيهم
قد احاطا بالكثير من القضايا الاجتماعية والتشريعية والحياتية ، التي قد يتعرض لها
المجتمع الاسلامي . وكان لا بد لهم ، ازاء هذه المشاكل من ان يلجأوا الى كتاب
الله ، فان وجدوا فيه الحكم فيما يريدون ، طبقوا نص القرآن وتمسكوا به ؛ وان لم
يجدوه ، اتجهوا الى سنة الرسول القولية والفعلية ، يلتمسون فيها الحل ، فان لم يجدوه
اجتهدوا بأرائهم وحكمهم وافهامهم ، فيما يرونه اشبه بالمعروف من مقاصد الشريعة
وقواعدها في اقامة العدل بين الناس وصيانة المجتمع . ومثلهم في ذلك مثل القاضي
في العصور الحديثة ، يتمسك بالنص حين يجده ، فان لم يجد النص ، استلهم وجدانه
ومثل العدالة وروح النص .

اجتهادات عمر :

وقد تميز صدر الاسلام باجتهادات جريئة لعمر بن الخطاب ، تجلت فيها عبقرية الخليفة العظيم ، وطاقته التشريعية الهائلة ، وثبتت بها مرونة التشريع الاسلامي وقابليته للتطور ، ولأن يكون مرتكزاً لكل تصعيدة حضارية في اي زمان ومكان .

ومن اجتهادات ابن الخطاب انه خالف ظاهر النص القرآني واستلهم روحه . ففي عام الرمادة ، وهو عام قحط ومجاعة ، ابى ان يطبق حد السرقة على السارقين مكتفياً بتعزيرهم . وسبب ذلك ، انه ادرك عظمة الدين وسماحة القرآن ، وايقن ان الدافع الذي دفع هؤلاء الى السرقة ، انما هو الضرورة . والضرورات كما نعلم نحن اليوم ، تبيح المحظورات ، خصوصاً حين يكون المرء في موقف تهدد فيه حياته وحياة من يحب . او ان اعتبر على الاقل ان في الامر شبهة عامة ، وانهم انما كانوا يسرقون عن ضرورة ، والحدود تدرأ بالشبهات . وهذه القاعدة الفقهية هي اليوم احدى مرتكزات التشريع الجزائي الحديث ، اذ ان الشك ، كما يقول هذا التشريع ، يفسر دائماً لمصلحة المتهم .

وهناك حادثة اخرى ، خالف بها عمر ظاهر النص ، فلقد ادرك هذا الخليفة العبقرى ، ان الاحكام تتغير بتغير الزمان ، فمنع المؤلفات قلوبهم من سهامهم المفروضة لهم بنصوص القرآن ، وحين طلب اليه ان يعلل حكمه ، اطلق تعليله جريئاً صريحاً ، فهو يفهم ان الاسلام انما اعطى هؤلاء نصيباً في الغنائم اتقاء لشركهم ، يوم كان الاسلام طريء العود ضعيف الجانب . اما رقد قوي الاسلام وانبسط ظله ، ولم يعد يضيره ان تنقلب عليه فئة لا هم لها الا اطاعها ؛ اما وقد تسامق بنيان الدين ، فلا حاجة له لاسترضاء هؤلاء وليصرف المال في وجوه اخرى تضمن خير المجتمع ومصالح العباد .

واليك مثالا ثالثا ، بل امثلة ثالثة ضربها ابن الخطاب ، فاذا هي ثورة على الجمود ، جمود العقل على الحرف ، وجمود الذهنية عن العطاء .

لقد طالبه المجاهدون ان يطبق احكام القرآن فيوزع عليهم سواد العراق وارض مصر كما توزع الغنائم ، وقالوا ذلك حق لنا نص عليه كتاب الله ، وحمته سنة رسوله ، وقال عمر : لا نافع . وابقى الارضين لاهلها ، وطرح عليها ضريبة الخراج ، لان ذلك اصلح لاهليها ولانها تضحى ، والحالة هذه موردأ ناميا يغذي بيت المال وينتفع به جميع ابناء الامة .

وانتهى عهد الصحابة ، وابتدأت عهود اخرى امتدت معها ظلال الدولة الاسلامية ، فانتظمت خليطاً من الشعوب ، واطلت كثيرا من الامم ، وكانت هذه الامم ، مختلفة النظم ، متباينة العادات والتقاليد واللغات . وشعر المسلمون مرة اخرى ، انهم مدفوعون الى الاجتهاد دفعا ، تقودهم اليه طبيعة الاوضاع الجديدة وضرورات الحياة الجديدة ، فشطت الحركة الاجتماعية نشاطا عظيماً ، وظهر امثال ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد ، الذين لم يكتفوا باستنباط الاحكام من حوادث واجهها عصرهم ومجتمعهم ، بل انهم استنبطوا الاحكام من قضايا تخيلوها او اعتبروها ممكنة الحدوث ، فاثروا بذلك الفقه الاسلامي ، واورجدوا ثروة تشريعية هائلة ، تعتبر بحق ، اعظم ارث تشريعي للمسلمين .

شروط المجتهد :

وتجنباً لفوضى التشريع ، وضع الاقدمون شروطاً لا بد من توفرها في المجتهد ، منها : ان يكون عالماً بمواضع الآيات التي يريد الاستدلال بها ، وابواب الحديث ، وان يعرف النسخ والمنسوخ في القرآن ، وان يكون ملماً بالاجماع . فيعلم انه ليس في المسئلة التي يبحثها اجماع يناهض رأيه ، وان يكون فوق هذا عالماً بلغة العرب واسرارها .

لا جمود ولا عجز في الاسلام :

ومرت العصور مراعاة ، واستفقتنا نحن اليوم على مدهشات العلم ومعجزاته ، ومست الحاجة الى مواجهة المدنية الزاهرة ، باحكام جديدة تنسجم معها وتسايرها وتطلعنا نحن المسلمين الى مؤسساتنا الفقهية ، نلتبس عندها الحلول ، ونطلب اليها ان تدلي برأيها من زاوية الدين .

فماذا كانت النتيجة .

لقد وجدنا ويا للأسف ، ان عقليتنا التشريعية تسمرت حيث تركها الاقدمون ، وجمدت عند النصوص التي خلفوها . ومعنى ذلك ، اننا اعترفنا بتقصير العقل الحديث عن اللاحق بالعقل الغابر ، بل لم لا نقول : ان معنى ذلك كان الغاء كلياً لعقولنا وملكاتنا الفكرية ، حتى ظن الكثيرون خطأ ، ان هذا الجمود التشريعي انما هو نابع من طبيعة ديننا ، وان هذا الدين فشل في مسايرة التطور والانسجام مع المدنيات الحديثة .

ما أبرأ الدين الاسلامي ، ايها القاريء العزيز ، من تهمة التجمد والجمود ، هذه العلة التي اصاب بها رجاله ، فاتهم هو بها ظمأ وعدواناً ، وعن جهل بما فيه من طاقات عجيبة ، وطواعية قادرة ، ومرونة هائلة ، وزخم حضاري عظيم .

حل واحد :

هؤلاء السادة ، الذين زعموا لانفسهم سدانة الدين ، هم الذين خلعوا على فقهاء ظلًا من الصنمية والقداسة ، ونسوا ان العقل المستنبط يجب الا يقف عند نصوص الفقهاء ، ما دامت ينابيع التشريع في الدين الاسلامي معروفة ، وما دامت هذه

الينابيع من التدفق وسخاء العطاء ، بحيث نوزع الحصب والنجاء ، وتعطي الحضارات مقومات البقاء .

هناك حل واحد ينفي عن الاسلام تهمة الجحود ، هذا الحل يقضي بان يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، دون التفتات لاولئك الذين اقاموا انفسهم حراساً على ارثنا الفقهي ، واعتبروه من مقدساتنا التي لا تمس . ثم ان على الذين يقولون بسد باب الاجتهاد ان يبينوا لنا الطريق الذي حصل بسبب الانسداد ، أهو التقليد ام الاجتهاد ؟ فان كان التقليد ، فاننا لم نسمع ان احداً من صحابة النبي ﷺ وتابعيه قال به ، وان كان الاجتهاد ، فلماذا لا يحق لمن بعدهم ان يجتهد وهم يجتهدون .

ان بين رجالات المسلمين اليوم ، من اوتوا من الانطلاق الفكري ، وصدق الايمان ونير العقلية ، ما يمكنهم من استبطاء الاحكام الجديدة المنسجمة مع روح العصر ، وما يساعدهم على ان يظهروا الاسلام بمظهره الصحيح ، من التقدمية وسعة الصدر .

ولعل من مفاخر الشيعة الامامية ان باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحاً ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين .

ان المجتمع التشريعي الاسلامي ؟

ولكم نتمنى الآن على رجالاتنا الغيورين على دينهم ان يتنادوا الى تأليف جمع يتولى اعادة النظر بارثنا الفقهي كله ، وان يستنبطوا ويجتهدوا ، ويخرجوا الفقه الاسلامي من قوقعته .

ولكم نتمنى ايضاً على جامعة الدول العربية ، ان يتضافر اعضاؤها في سبيل هذه الغاية ، وان يعملوا جميعاً من اجلها ، فقد اجتهد الائمة الاربعة وغير الائمة الاربعة ، في زمن كانت الابل فيه هي معجزة الصحراء ، أفلا يحق لنا نحن ، ان

فجتهد في عصر الذرة والرادار والراديو والتلفزيون والاجرام الاصطناعية .

لقد اجتهد ائمة الاسلام في العصور الغابرة ، واعتمدوا في اجتهاداتهم على القرآن وهدى السنة وروح الدين ، ولم يجدوا حرجاً في ألا تتوافق اجتهاداتهم احياناً ، فلعل كل منهم حرمة ، ولكل فقيه منهم وجهة نظره ، فكيف يحرم علينا ان نجتهد وان نعمل عقولنا ، وكتاب الله ما زال بين ايدينا وفي صدورنا وسنة رسوانا الاعظم ما فتئت هي النبراس ، وهي المشكاة التي تبده الظلمات ، وتهدينا سواء السبيل .

ان التشريعات الوضعية الحديثة ، آمنت بالاجتهاد ، وقضت على محاذيره وفوضاه ، بتأليف محاكم عليا لتوحيد الاجتهادات ، حين تتضارب هذه الاجتهادات وتتنافر ، ولم لا نلجأ نحن بعد فتح باب الاجتهاد ، الى تأليف محكمة عليا ، توحد وجهات النظر وتقارب بينها ، وتخدم الاسلام كما يجب ان يخدم ، وتنقذه كتشريع اجتماعي خالده ، من تهم القصور والجمود وعدم الانسجام مع الوثبات التصاعدية للمدنية الحديثة .

ارجو ان يعيد الزمن دورته ، ويسترد الاجتهاد مكانته ، ويمسحنا الله قوته .

الفهرس

الصفحة

٥

مقدمة

٩

الإسلام عبر العصور

١٠

رسالتنا - حقيقتان

١١

الإسلام بين الشرق والغرب

١٢

جرثومة الاستعمار - نظرة على الماضي - بداية المعجزة

١٣

حقوق الانسان

١٥

الإسلام والعقائد

١٦

المسلمون وأهل الكتاب - رأي مؤرخ غربي

١٧

جريمة الاستعمار

١٨

لا تعصب في الاسلام - الاسلام والمدنية

١٩

الانتصارات العلمية والعملية

٢١

ما هو سبب الوهن

٢٢

اخبار الانحطاط - صور قاتمة

٢٣

درس من ملك رنج - عصور مظلمة

٢٤

الهوان العجيب - المرأة الجبارة

٢٥

عصر الدولة العثمانية - حاضر الاسلام

٢٦

انقاذ وقيادة

٢٧

الصراع المقدس - اننا متفائلون

٢٨	الاسلام والنظريات المادية
٣٠	الجمال بنظر الاسلام — مثل رمزي
٣١	الضمان الاجتماعي
٣٢	كيف تتم عملية الانبعاث
٣٣	واجب المعبود والمهبد والبيت
٣٤	المشكاة الواحدة
٣٥	متى ؟

٣٧ الحريات العامة في الاسلام

٣٨	مشكلة الرق
٤٠	رأي مستشرق في الرق — التحرير لم يتم فعلا
٤١	حجربة الفكر والعقيدة
٤٢	لا اكراه في الدين
٤٣	لا هوادة مع المتآمرين — منات عابرة
٤٤	حرية الرأي والقول
٤٥	موقف عمري — موقف آخر
٤٦	موقف ثالث — النبي وحرية الرأي
٤٧	الحرية المقيدة — حرية الآخرين
٤٨	حرية المرأة
٤٩	حرية العمل
٥١	حرياتنا في الميزان

٥٣ المجتمع المثالي :

٥٣	معركة بين النظريات
----	--------------------

٥٤	السعادة ضالة البشر
٥٦	عمل الاسلام من اجل العدالة - معنى العدالة في رمضان
٥٨	دعائم المجتمع المثالي - تطهير داخلي
٦٠	اسس البناء الثلاثة : اولها وحدة المنشأ. وثانيها وحدة القيمة
٦١	وحدة المصير
٦٢	المساواة المطلقة
٦٣	صور فذة من تطبيق مبدأ المساواة
٦٤	نظرة الاسلام الى الاديان
٦٥	الاسلام والانبياء
٦٦	قواعد العدالة الاجتماعية :
٦٦	١ - اعلان الاخوة بين ابناء المجتمع الاسلامي
٦٦	٢ - تشديد التكبر على كل عمل يوهن الاخوة الاسلامية
٦٧	٣ - الترغيب في كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة
٦٨	٤ - اعلان الاخوة الانسانية، واسقاط التفاضل بالانساب والمظاهر
٦٨	لفتات نبوية حول الاخوة الانسانية - العدل اساس الملك
٧٠	الناس امام العدل سواء
٧١	العدل الاقتصادي توأم العدل الاجتماعي
٧٢	عمر يحقق الضمان الاجتماعي
٧٣	لا استغلال
٧٤	حلقات التكافل الاجتماعي
٧٥	الدين والدنيا - اين هو المجتمع المثالي
٧٦	من حقنا

الديموقراطية المفقودة

٧٩	
٨٠	ديموقراطية محمد
٨٢	ليسمع عظماء اليوم
٨٣	صفحة ناصعة
٨٤	امثلة رائعة
٨٥	اختيار الحكام
٨٧	محاسبة الولاة
٨٨	بين عمر وعامل حمص
٨٩	ديموقراطيتنا وديموقراطيتهم
٩٠	ماذا تفعل فرنسا - مجازر الجزائر
٩١	فضائح مريعة
٩٢	شاهد من اهله
٩٣	ماذا تفعل بريطانيا وماذا تفعل اميركا
٩٤	لا امثلة من ديموقراطية اميركا
٩٥	اللون المحرم
٩٦	لا وجود للديموقراطية - انبعاث الديموقراطية العربية

الاشتراكية الاسلامية :

٩٧	
٩٨	الاشتراكية قبل ماركس
٩٩	الاسلام والرأسمالية
١٠٠	تشابه نظام الوقف والنظام الاشتراكي
١٠٠	نظام الوراثة
١٠١	الاسلام والربا
١٠٢	الاسلام والاحتكار

١٠٣	الاسلام ومبدأ المصالح المرسله - اي المصالح العامة
١٠٣	الاسلام ومبدأ شيوع الموارد العامة
١٠٤	الاسلام ومبدأ تحريم الترف والاسراف
١٠٥	الاسلام ومبدأ الكنز

بين الاشتراكية والقومية

١١٢	تعريف الاشتراكية
١١٢	انظمة اشتراكية اخرى
١١٣	اهداف الاشتراكية
١١٤	الاشتراكية والمذاهب العنصرية - تعريف القومية
١١٦	القومية العربية
١١٨	هل تناقض القومية الاشتراكية ؟
١١٩	الاشتراكية العربية ؟
١٢٠	النضال القومي العربي والاشتراكية
١٢٢	ميلاد القومية العربية
١٢٤	مراحل تكوين القومية
١٢٥	القومية العربية والاشتراكية
١٢٨	القومية العربية متحركة
١٢٩	الاشتراكية والنهضة العربية
١٢٩	الاشتراكية طريق القومية

بين العروبة والاسلام :

١٣٥	فترة حاسمة
١٣٥	بين العروبة والاسلام

١٣٧	الاسلام للانسانية
١٣٨	العروبة : لا تخيف احداً
١٣٩	المساجد والصوامع في القرآن الكريم
١٤٠	الملوك المنحرفون — رسالة الاسلام وحقيقة القومية
١٤٢	حضارة العرب قبل الاسلام
١٤٦	الفساسنة وبنو تغلب ومملكة سبأ
١٤٨	المملكة الحميرية
١٤٩	حضارة اليمن
١٥٠	نهاية المطاف — موجات الاستعمار والبلاد العربية
١٥١	ليعلم الاستعمار
١٥٢	دور الاسلام في الوطن العربي
١٥٤	رسالة المواطن العربي
١٥٥	نداء ونصيحة

المرأة والحرة

١٥٨	المرأة الجاهلية
١٥٩	المرأة والشرائع القديمة — كيف تساوي المرأة الرجل
١٦١	كره البنات — الحجاب
١٦٢	تعدد الزوجات
١٦٣	انقاذ المرأة — معطيات الاسلام للمرأة
١٦٤	نساء مسلمات
١٦٥	المرأة ومجالس العلم
١٦٦	المرأة والقتال
١٦٧	اوضاع المرأة الحديثة — واجب الدول العربية

- ١٦٨ ماذا نريد للمرأة
١٦٩ ميراث المرأة
١٧٠ وجهاً لوجه مع المتهجمين

لبنان اخاء بين المسيحية والاسلام

- ١٧٣ التعايش تجسيد لحقيقة قديمة
١٧٤ تجربة الاستعمار في البلاد العربية
١٧٤ الطائفية سلاح الاستعمار
١٧٥ الدول الكبرى تتقاسم الطوائف
١٧٦ اهررة الثلاث
١٧٧ داء الطائفية
١٨٠ ارض العروبة مهبط الرسالتين
١٨١ محاولة اخيرة فاشلة
١٨٣ لا حاجة لاثبات الاخوة
١٨٤ وحدة الوطن

افتحوا باب الاجتهاد

- ١٨٨ اجتهادات عمر
١٨٩ شروط المجتهد
١٩٠ لا جمود ولا عجز في الاسلام - حل واحد
١٩١ اين المجتمع التشريعي الاسلامي

تمّ طبع هذا الكتاب

عام ١٩٥٩